دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	آفاق جديدة للعلوم الإنسانية : علم النفس و الإيثولوجيا
المصدر:	حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية
الناشر:	جامعة الكويت - مجلس النشر العلمي
المؤلف الرئيسي:	القنطار، فايز نايف
المجلد/العدد:	الحولية26, الرسالة234
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2005
الشهر:	سبتمبر
الصفحات:	8 - 89
رقم MD:	476860
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch, AraBase
مواضيع:	النظريات النفسية، العلوم الإنسانية ، علم النفس السلوكي، علم الإيثولوجيا ، وسائل الإتصال، تربية الأطفال، السلوك العدواني، الإضطرابات النفسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/476860

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

الرسالة ٢٣٤

آفاق جديدة للعلوم الإنسانية: علم النفس والإيثولوجيا

د. فايز نايف القنطار
قسم علم النفس - كلية التربية الأساسية
الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب
دولة الكويت

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية السادسة والعشرون - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

المؤلف:

د. فايز نايف القنطار

- دكتوراه في علم النفس الفيزيولوجي، كلية العلوم – جامعة فرانش كومتيه، فرنسا: ١٩٨١.
- دكتوراه الدولة في العلوم الطبيعية (نمو السلوك)، كلية العلوم، جامعة فرانش كومتيه، فرنسا، ١٩٨٧.
- أستاذ مساعد في قسم علم النفس – كلية التربية الأساسية – الهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب – الكويت.

الإنتاج العلمي:

الكتب:

١ – سيكولوجية السلوك الغذائي (٢٠٠٥)، دار العلم: الكويت.

٢ – الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم (١٩٩٢)، سلسلة عالم المعرفة، ١٦٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

٣ – تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة (١٩٩١)، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية (١٦)، الكويت.

٤ – مدخل إلى علم النفس التربوي (٢٠٠٤)، مكتبة الفلاح: الكويت (بالمشاركة مع د. علي عسكر).

٥ – علم نفس النمو: الطفولة، (٢٠٠٣) الجامعة العربية المفتوحة، الكويت (بالمشاركة مع د محمد الحوارني، ود. معصومة إبراهيم).

6 - Mediation of Olfaction in Early Socialization. In Anthropologie de l'ofaction, 292-319, Bocara M&Reu-Ulman (Eds.) (In collaboration with B. Schaal) L'Harmattan: Paris 1998 France.

7 - Variability's of Odors Perceived In the Space, In: Dulau R&Pitte J-R.: Geographie des Odeurs: 25-47. (In collaboration with: Schaal B., Rouby C., Marlier L., Soussignan R., et Tremblay R.,) 1997, L'Harmattan: Paris, Montreal.

الأبحاث:

١ – دراسة ميدانية لسلوك الإرضاع في المجتمع الكويتي (٢٠٠٢)، مجلة علم النفس المعاصر، ١٣، ٨١–١١٤ مصر – جامعة المنيا.

٢ – سلوك الإرضاع عند الأم السورية: دراسة وصفية تحليلية، ٢٠٠٣، مجلة الطفولة العربية المجلد ٤، العدد (١٤) ٣٦ – ٥٢.

3 - Study of Communication Behavior in Children: Affiliative and Agonistic Exchanges in Toddler - Peer Interactio., 1992., The E.R.C. Journal, 1, 251 - 267.

4 - Ethological Study of Toddler-Peer Interation.., 1986, Revue d'Ecologie et d'Ethologie Humaine, 1, 50 - 69.

5 - Toddler-Peer Interaction Systems: Dyadic and Polyadic Exchanges, 1987. Biology of Behaviour, 12, 45 - 59.

المحتوى

الملخص ١١

مقدمة ١٣

أولاً – تطور العلاقة بين الإيثولوجيا وعلم النفس ١٧

– الإيثولوجيا البشرية ١٨

– المفاهيم الأساسية في الإيثولوجيا ١٩

١ – السلوك الفطري ١٩

٢ – السلوك الفطري والسلوك المكتسب ٢٠

٣ – مفهوم المرحلة الحساسة في النمو ٢١

٤ – مفهوم الانطباع ٢٢

٥ – تكيف السلوك مع شروط البيئة ٢٤

٦ – السلوك البشري من منظور إيثولوجي ٢٥

٧ – التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس ٢٧

ثانياً – نواتج أثمر عنها التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس ٣٣

١ – **سلوك الاتصال وتطور نظام الاتصال اللاكلامي عند الطفل** ٣٣

١ – ١ – الوظيفة الاتصالية لتعبير الوجه ٣٥

١ – ٢ – تعرف التعابير الانفعالية الوجهية عند الطفل ٣٦

١ – ٣ – تطور تعرف التعابير الوجهية عند الطفل ٣٧

١ – ٤ – سلوك الابتسام ٣٨

١ – ٥ – سلوك التقليد ٤٠

٢ – **سلوك التعلق** ٤٣

٢ – ١ – التعلق عند العصافير ٤٣

٢ – ٢ – التعلق عند الفئران ٤٤

٢ – ٣ – التعلق عند الثدييات العليا ٤٥

٢ – ٤ – التعلق بين الصغير والأم عند الإنسان ٤٧

٢ – ٥ – نظريات التعلق ٤٨
٢ – ٦ – التفاعل بين الطفل والأم ٥٦
٢ – ٦ – ١ – التفاعل اللمسي ٥٧
٢ – ٦ – ٢ – التفاعل البصري ٥٨
٢ – ٦ – ٣ – التفاعل الصوتي ٦٠
٢ – ٦ – ٤ – التفاعل الشمي ٦١
٢ – ٧ – خصائص التعلق وتأثيرها في نمو الطفل ٦٣
٣ – **التفاعل بين الطفل والأتراب** ٦٥
٤ – **الفروق بين الجنسين** ٦٨
٤ – ١ – العوامل التي تؤثر في الفروق الجنسية ٦٨
أ – المقاربة الإيثولوجية ٦٩
ب – المقاربة السيكوبيولوجية ٧٠
٥ – **السلوك العدواني** ٧١
٥ – ١ – مفهوم الطقوس في العدوان ٧٢
خاتمة ٧٧
الهوامش ٧٩
المراجع ٨٣

الملخـص

يتناول هذا البحث الإيثولوجيا أو بيولوجيا السلوك في تفاعلها مع علم النفس والعلوم الإنسانية والاجتماعية. لقد حاول بعض الباحثين استخدام الناهج والتصورات الإيثولوجية في دراسة السلوك مع التركيز على السياق التطوري التكيفي لمختلف جوانب السلوك. تشترك الإيثولوجيا مع علم النفس في الاهتمام بتحليل السلوك الإنساني وإلقاء الضوء على التفاعل الاجتماعي والوظيفة الحيوية لبعض أشكال السلوك مثل سلوك التعلق (تلك العلاقة القوية التي تربط الصغير بالأم) ووظائفه التكيفية.

ساهمت المقاربة الإيثولوجية في دراسة نمو السلوك البشري في اتجاهين اثنين:

١ – من خلال تطبيق تقنية الملاحظة الدقيقة للسلوك عندما يظهر بصورة طبيعية تلقائية، ودراسته دراسة وصفية وتصنيفه.

٢ – الإلحاح على سياق التكيف التطوري للسلوك.

أليس السلوك الفردي يتأثر إلى حد كبير بتاريخ الفرد وبمحيطه الثقافي؟ ما دور الطبيعة والتطبع؟ لقد ساهمت الإيثولوجيا مساهمة خلاقة في توضيح الإجابة عن هذين السؤالين، كما أثمرت المقاربة الإيثولوجية في دراسة جوانب متعددة من السلوك الإنساني خصوصاً سلوك التعلق وسلوك التفاعل الاجتماعي بين الطفل وأقرانه والسلوك الكلامي واللاكلامي والفروق بين الجنسين والسلوك العدواني.

كما ساهمت الإيثولوجيا في تذكير علماء النفس بأننا مخلوقات بيولوجية تمتلك خصائص وراثية تؤثر في خبراتنا المتعلمة. وأوضحت البحوث الإيثولوجية أن الطفل الحديث الولادة هو مخلوق اجتماعي يتمكن من تطوير التواصل الاجتماعي منذ اليوم الأول لولادته.

مقدمة

تطورت في العقود الأخيرة البحوث التي تعتمد منهج الملاحظة الميدانية، وظهر ما يسمى الإيثولوجيا أو بيولوجيا السلوك (Ethology: Biology of Behavior) التي تتناول بالدراسة الدقيقة سلوك الأنواع المختلفة، وتعتمد منهج الملاحظة الميدانية للسلوك، في تعبيره العفوي، في الوسط الطبيعي المعتاد للكائن الحي. وربما كان التحول الأكثر أهمية هو ظهور الإيثولوجيا البشرية (Human Ethnology)، المشتقة من سابقتها والتي تأخذ أهمية خاصة في ميادين التربية وعلم النفس[١]. وتتبنى الإيثولوجيا البشرية التصورات والمفاهيم الإيثولوجية التقليدية إذ ترى أن السلوك يستند إلى قاعدة بيولوجية، وتسلم بأن النوع البشري مزود ببرامج سلوكية محددة وراثياً تظهر في أثناء مراحل النمو الفردي.

ومن وجهة النظر الإيثولوجية يمتلك الفرد منظومة سلوكية أساسية تنمو أثناء تطور الصغير حيث تنتظم نشاطاته الحركية والاتصالية بالتدريج، وتنمو كنمو الأعضاء الجسدية المختلفة وبشكل مواز، فمن وجهة النظر هذه لا يتمكن الكائن البشري من البقاء والتكيف بفضل الأعضاء الجسدية المختلفة فحسب، وإنما أيضاً بفضل منظومة سلوكية محددة.

لقد ظهرت الإيثولوجيا علماً على يد لورنز (LORENZ)، وتنبرجن (TINBERGEN) مؤسسي المدرسة السلوكية الموضوعية الحديثة. وهي باعتمادها منهج ملاحظة السلوك في شروط الحياة الطبيعية المعتادة للفرد، وبإلحاحها على مفهوم الغريزة، تتعارض مع السلوكية التقليدية (behaviorism)، في المنهج وفي التصور، فعلى العكس من السلوكية الأمريكية التي ترفض أي تفسير للسلوك يستند إلى البيولوجيا، تجعل الإيثولوجيا منها القاعدة التي يستند إليها السلوك، إذ تحتل المسائل المتعلقة بالغريزة وبالعتاد الوراثي للنوع مركز الصدارة (Zazzo., 1985).

وتعد النظرية الداروينية الجديدة في التطور الأرضية التي انطلقت منها المدرسة الإيثولوجية الموضوعية، التي ترى أن السلوك يساهم في عملية التكيف لنوع من الأنواع، في الوسط الذي يعيش فيه، مثل مساهمة الخصائص الجسمية والتشريحية والفيزيولوجية، وكل كائن يجب أن يتكيف مع محيطه إما بواسطة أعضائه الجسدية أو بواسطة وحدات سلوكية (Wilson, 1975). لقد عمل بعض الباحثين على عزل السلوك الاجتماعي الذي يجد أسسه في العتاد الوراثي للنوع أو للجنس (Eibl-Eibesfeldt, 1973). لقد عمل داروين على صياغة الفرضية القائلة: إن أي نوع من الأنواع يمكن أن يتعرض سلوكه للتعديل بالانتخاب الطبيعي، بنفس المستوى من التعديل الذي يمكن أن يصيب الخصائص الجسمية والتشريحية. فيجب اعتبار السلوك الذي يمكن ملاحظته في لحظة ما محصلة لتطور النوع، وبنفس الوقت يعتبر عنصراً يسهل هذا التطور.

سنتعرض في هذه الدراسة إلى مراجعة أهم أدبيات البحوث – التي توافرت لدينا – والتي توضح تطور العلاقة بين الإيثولوجيا وعلم النفس، مع تركيز أهم الموضوعات التي كانت محوراً للتفاعل بينهما.

سنحاول في هذا البحث تحقيق هدفين أساسيين:

أولاً – دراسة تطور العلاقة بين الإيثولوجيا وعلم النفس.

ثانياً – التعريف بأهم نتائج البحوث التي أثمر عنها التفاعل بين المقاربتين الإيثولوجية والنفسية، وبخاصة البحوث التي تناولت بعض أشكال السلوك، استناداً إلى معيارين أساسيين:

أ – السلوك الذي يشكل أهمية حيوية بالنسبة للفرد ويؤثر تأثيراً عميقاً في نموه، من مختلف الجوانب الجسمية والانفعالية والمعرفية والاجتماعية.

ب – السلوك الذي يستند إلى قاعدة فطرية وراثية من وجهة نظر الإيثولوجيين.

لقد احتلت دراسة العلاقة بين الأم والطفل أهمية خاصة في هذه البحوث التي أدت إلى تعديل جوهري في نظرة علم النفس المعاصر إلى هذه العلاقة. كما اهتمت

هذه البحوث بالسلوك الاجتماعي للطفل في تفاعله مع الأقران، وفي تنظيم التفاعل في إطار المجموعة، وبخاصة في المراحل المبكرة من النمو، في الحضانة أو في الروضة.

كما سنعمل على توضيح بعض جوانب السلوك التي كانت ثمرة لهذه البحوث. إذ ساهمت في تقدم معارفنا المتعلقة ببعض أشكال السلوك مثل السلوك العدواني، والفروق بين الجنسين، وسلوك الاتصال، وبخاصة نظام التواصل غير الكلامي ودوره في تطور التفاعل الاجتماعي عند الطفل.

أولاً - تطور العلاقة بين الإيثولوجيا وعلم النفس

يعطي القاموس الفرنسي (Robert, 1977) كلمة إيثولوجيا (Ethologie)(*) معنيين اثنين:

الأول: العلم التاريخي للعادات والأخلاق، **والثاني:** علم سلوك الحيوان في بيئته الطبيعية. ويبدو أن المعنى الثاني هو الأوسع انتشاراً حيث تبلور عبر العقود الأخيرة ليأخذ معناه الحالي، وليعني ذلك الميدان الذي يتناول بالدراسة الكائن الحي في علاقاته الشاملة مع بيئته.

في محاولة علماء النفس دراسة السلوك دراسة موضوعية في مطلع القرن العشرين (واطسون، ثورندايك) انصبت جهودهم على دراسة استجابات محددة تتم استثارتها في شروط مخبرية مضبوطة تجريبياً، حيث كان التجريب يشكل هاجساً عند علماء النفس في تلك المرحلة، استناداً إلى الفكرة القائلة: إن علم النفس لكي يصبح علماً موضوعياً، كغيره من العلوم، يجب أن يصبح علماً تجريبياً. تساءل لورنز (١٩٣١) إلى أي مدى يمكن لاستجابة معزولة ضمن هذه الشروط أن تمثل الظاهرة السلوكية التي يمكن ملاحظتها في ظروف الحياة الطبيعية. اقترح لورنز تحليل السلوك بالاستناد إلى ملاحظة الحيوان في وسطه الطبيعي، وعمل على بلورة أفكار من سبقوه في إطار جديد ليساهم في ولادة علم السلوك المقارن. وبذلك يعود الفضل إلى لورنز الذي كانت له الأسبقية في إعادة اكتشاف الإيثولوجيا (Provost, 1985). إلا أن تنبرجن هو الذي أعطى الإيثولوجيا التعريف الأكثر قبولاً من قبل العلماء.

فما هي الإيثولوجيا؟ يعرف تنبرجن (Tinbergen, 1951) الإيثولوجيا بأنها الدراسة البيولوجية للسلوك. فالإيثولوجيا، بأساسها النظري الذي يعود إلى الداروينية الحديثة، ترى أن الجوانب الجسدية التشريحية لنوع من الأنواع والوسط

(*) علم العادات والأخلاق (المنهل، ١٩٩٨).

الطبيعي والسلوك تشكل عناصر هوية بيولوجية تسمح للنوع بالتكيف في محيطه المباشر، وكل عنصر من هذه العناصر لا يتيسر فهمه إلا استناداً إلى دراسة العناصر الأخرى.

- الإيثولوجيا البشرية

يجب الانتظار حتى الخمسينيات من القرن الماضي لتنشر البحوث الأولى التي تستخدم المعطيات والمناهج الإيثولوجية في دراسة الكائن البشري، وبخاصة في دراسة الطفل. وهكذا حدث، للمرة الأولى، الارتباط المهم بين الإيثولوجيا وعلم النفس، لقد نشر الأمريكي هارلو والإنجليزي بويلبي كل على حدة، وبصورة مستقلة، بحثين شكلا القاعدة لمنحى جديد في علم النفس سيسمى فيما بعد بالاتجاه الإيثولوجي (Provost, 1985). أوضح هارلو، استناداً إلى ملاحظاته المتعلقة بالرئيسات، على عكس ما تراه نظرية التحليل النفسي، أن البحث عن المجاورة والاقتراب والتواصل مع الأم، عند صغار القردة، يأتي قبل الحاجة إلى الغذاء. كما انتقد بويلبي الكثير من أفكار نظرية التحليل النفسي كما سيتضح لاحقاً عندما نتناول سلوك التعلق. فكلما تقدم بويلبي في ملاحظة آثار الحرمان من الأم شعر بعدم الرضا عن تفسير التحليل النفسي لذلك.

ولدت الإيثولوجيا البشرية بوصفها ميداناً خاصاً من ميادين العلوم وتطورت بعد عام ١٩٧٠، وكان هذا التطور ثمرة التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم نفس النمو. إذ إن دراسة السلوك البشري تستوجب مساهمة هذين الميدانين، لأنهما يسعيان لفهم السلوك الإنساني في نهاية المطاف. ومن وجهة النظر هذه، تشترك الإيثولوجيا مع علم النفس وعلم الاجتماع في الهدف وعليهم التعاون لبناء مناهج للبحث وإطار نظري مشترك. ويعد التوافق بين هارلو وبويلبي حول مفهوم التعلق نقطة تحول مهمة في ولادة الإيثولوجيا البشرية. إذ اعتبر كلاهما أن التعلق بين الصغير والأم حاجة أولية، مستقلة عن غيرها من الحاجات، وليس مسألة ثانوية تنمو وتتطور على هامش الدوافع الأولية (الجوع) كما كان يعتقد أصحاب نظرية التحليل النفسي. أدى

هذا التطور إلى انقلاب حقيقي في الأفكار السائدة، وحمل زازو على وصف هذا التحول بالحدث العلمي الذي سيؤدي إلى تجديد مهم في ميدان علم النفس[٢].

تزدهر الإيثولوجيا في أيامنا، وتحتل دوراً أساسياً في البحوث المعاصرة، وتعاقبت البحوث والدراسات في ميدان الإيثولوجيا البشرية (Von Cranach et al., 1979)، وإيثولوجيا الطفل (Le Camus, 1985; Tramblay et al., 1985). إضافة إلى تناول المنهج والتصورات والأهداف المتعلقة بالإيثولوجيا، تتناول هذه البحوث دراسة مختلف أشكال السلوك، في ميدان النمو الإنساني، وبخاصة في قطاعين اثنين: العلاقة بين الأم والطفل والتنظيم الاجتماعي لمجموعات الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة.

المفاهيم الأساسية في الإيثولوجيا:

١ – السلوك الفطري

يرى الإيثولوجيون أن السلوك – على غرار الخصائص المورفولوجية والتشريحية والفيزيولوجية – يسهم في تكيف النوع مع المحيط. ومن أهدافهم الأساسية تحديد السلوكيات الاجتماعية التي تضمن للأفراد الحضور الأمثل لمورثات النوع، أي السلوكيات المتموضعة في العتاد الوراثي للنوع. ومن أهم خصائص هذا السلوك أنه يظهر عند جميع أفراد النوع (Wilson, 1975; Lorenz, 1965; Eibel-Eibesfeldt, 1977; 1979).

وكما يجهد الإيثولوجيون في دراسة الأسباب الفيزيولوجية للميكانيزم، والمثيرات التي تطلق السلوك، والسياق الفردي للتطور، فهم يتعرضون أيضاً لهذه المسائل من وجهة نظر الانتخاب والتطور التاريخي، وتموضع السلوك وتطوره عند النوع. إذ تمكنت جميع الأنواع عبر تاريخها الطويل من تطوير منظومة سلوكية غريزية سمحت لها بالتكيف والبقاء.

حاول الإيثولوجيون فهم دور الوسائل السلوكية في البقاء، وفي المحافظة على النوع، في محيطه الطبيعي المعتاد وساعد هذا المنهج في فهم الجوانب الأساسية لسلوك الإنسان خاصة ما يسمى بالسلوك الفطري. فبنية النظام السلوكي الفطري

تسمح بالتوصل إلى نتيجة مفيدة للفرد. إلا أن هذه الفائدة ليست سوى فائدة مباشرة، فالفائدة النهائية تكون فائدة النوع. وتكون النتيجة النهائية للأنظمة السلوكية الفطرية – كمضغ الطعام، أو الاتحاد الجنسي، أو الحماية الذاتية، أو الدفاع عن الأرض أو المحافظة على النوع. إن الفرد يشكل عضواً في هذا النوع، والنظام البيولوجي الذي ينطبق عليه مفهوم التكيف ليس فرداً وإنما وحدة اجتماعية ("population" Bowlby, 1969).

٢ – السلوك الفطري والسلوك المكتسب

اهتم بعض الإيثولوجيين بالدراسة النمائية للسلوك عند الأفراد في تفاعلهم مع المحيط. فالسلوك الفطري لا يمكن أن يكون نتيجة التعبير الجامد للوراثة فهو ينمو عند فرد ما، خلال مراحل النمو، تحت التأثير الثنائي للنضج والتجربة، إن هذا التصور يظهر السلوك بصورة ديناميكية، يتم تعديله تدريجياً تحت التأثير المتبادل للعوامل الداخلية (الوراثية) والعوامل المحيطة. مما يؤدي إلى تغيرات تكيفية – فردية ليس فقط في الأفعال الحركية بل أيضاً في فعالية الخصائص السلوكية.

إن التقدم الذي شهدته العقود الأخيرة في علوم الإيثولوجيا وعلم النفس التجريبي وفيزيولوجيا الجهاز العصبي ساهم في إعادة النظر في العلاقة بين الفطرة والاكتساب وفي تطور الحوار بين أنصار هذين المفهومين. لقد اتسمت النقاشات التقليدية بالتعارض بين الخصائص الفطرية والخصائص المكتسبة. إلا أنه أصبح من الواضح الآن أن التعارض ما بين السلوك الفطري والسلوك المكتسب مسألة غير واقعية، حيث يصعب فهم الواحد بمعزل عن الآخر كما يصعب تصور المساحة بلا طول أو بلا عرض.

تعد الخصائص البيولوجية في جوانبها المختلفة – التشريحية أو الفيزيولوجية أو السلوكية – نتيجة للتفاعل المتصل بين المعطيات الوراثية وشروط المحيط. وهذا يستوجب إعادة النظر في العلاقة بين مفهومي الفطرة والاكتساب، وإيجاد مصطلح جديد ليحل محلها. فالسلوك الفطري لا يمكن أن يكون نتيجة للتعبير الجامد للوراثة.

إذ يظهر عند فرد معين تحت التأثير المزدوج والمتلازم للتجربة وللنضج البيولوجي الجسدي.

يظهر هذا التصور الأخير ديناميكية السلوك وتطوره التدريجي تحت التأثير المتبادل بين النضج والتجربة، إذ يكون السلوك محصلة للتفاعل المتصل بين العوامل الوراثية وعوامل المحيط، وذلك يقود إلى تغير فردي في التكيف، ليس فقط في مستوى النمو الحركي الفاعل للعضوية، بل أيضاً في خصائص فعالية التعبير السلوكي ومميزاته[٣]. إن الجدل بين علماء النفس، كما هو الأمر بين علماء الإيثولوجيا، حول تأثير الوراثة والبيئة في النمو وفي السلوك لا يزال قائماً (Jackson, 1993).

٣ – مفهوم المرحلة الحساسة في النمو

يختلف تأثير المثيرات التي تتعرض لها العضوية باختلاف المراحل النمائية. ويقصد بالمرحلة الحساسة تلك الفترة الزمنية من حياة أفراد النوع التي تؤثر تأثيراً عميقاً في النمو، يمتد ليشمل المراحل اللاحقة من الحياة. وتظهر هذه المرحلة الحساسة في المراحل الأولى من الحياة، إذ يكون لبعض التجارب الخاصة، في مرحلة محددة دون غيرها، تأثير بعيد الأمد. فالصيغ المختلفة للمثيرات لا تأخذ نفس الأهمية في جميع مراحل النمو. إن حرمان صغار القردة من الملامسة الجسدية في المرحلة الحساسة – أثناء السنة الأولى – يؤدي إلى اضطراب في السلوك الاجتماعي عند البلوغ. والمثل الواضح على تلك المرحلة الحساسة، تعذر اكتساب الغناء عند بعض الطيور إذا لم يسمع الذكر هذا الغناء أثناء مرحلة مبكرة من حياته (Bateson and Hinde, 1987).

افترض الكثير من علماء النفس أن الطفولة المبكرة على درجة كبيرة من الأهمية، فالمثيرات التي يتعرض لها الطفل في هذه المرحلة، تؤثر تأثيراً عميقاً، في التمايز وفي الفروق في الشخصية عند البالغين. إن هذا الافتراض يعني الاعتراف بأن هذه المرحلة من النمو هي مرحلة حساسة حيث تكون العديد من النظم والوظائف شديدة القابلية للتأثر بتجاربها في أثناء هذه المرحلة من النمو، ويمكن لتجارب بعينها

أن تؤثر تأثيراً عميقاً في مستقبل هذه النظم أو هذه الوظائف أثناء المراحل المختلفة من حياة الفرد(٤).

يمكن أن يكون مفهوم المرحلة الحساسة الخطوة الأولى في تفهم جانب مهم من جوانب النمو. فالفعالية العالية لمثير ما في مرحلة معينة يعني التأثير العميق في نمو الفرد والذي لا رجعة فيه، فهذه المرحلة الحساسة هي الوقت الأمثل للتأثير في السياق البيولوجي – السلوكي أثناء النمو.

كما يعني مفهوم المرحلة الحساسة أن العضوية، أثناء المراحل التي تسبق هذه المرحلة وأثناء المراحل التي تليها، تكون أقل حساسية وأقل قابلية للتأثر ببعض أنواع المثيرات، مقارنة بالمرحلة الحساسة، مع تحول تدريجي نسبي. وينطبق ذلك على الطفل، فالمحيط الذي تنقصه المثيرات في المراحل المبكرة يؤثر تأثيراً سلبياً في تطور الطفل، على الرغم من تعويض هذا النقص في المثيرات في مراحل لاحقة (Hirsch and Tieman, 1987).

لقد تعرض مفهوم المرحلة الحساسة إلى انتقادات قوية. لقد أخذ على هذا المفهوم إغلاق التطور في صيغ متقطعة على الرغم من أن الاستمرارية تكون القاعدة أكثر مما تكون الاستثناء (Blass, 1987). كما أن خصائص بعض الصيغ السلوكية التي تعتمد على التجربة المبكرة يمكن تعديلها فيما بعد (Bateson and Hinde, 1987).

٤ – مفهوم الانطباع

لم يكن مفهوم المرحلة الحساسة جديداً في ميدان البيولوجيا أو في ميدان السلوك. فالتعلق الاجتماعي – مثلاً – يحدث عند بعض الأنواع خلال مرحلة قصيرة. إلا أن لورنس استخدم مفهوم الانطباع ليصف سياق سلوك التعلق، بين الصغير والأم، عند فراخ الإوز، ليؤكد سرعة حدوث هذا السلوك واستمراريته. فالمرحلة الحساسة تعني هذا الوقت القصير نسبياً الذي يمكن خلاله حدوث الانطباع. إن تعرض فراخ الإوز لمثير متحرك، بعد خروجها من البيض، خلال المرحلة الحساسة، يؤدي إلى حدوث سلوك التعلق بين هذه الفراخ والمثير المتحرك واتباعه حتى وإن كان هذا المثير كرة متحركة أو دمية أو المجرب أو الأم. فالصورة الأولى

المتحركة التي يصادفها فرخ الإوز (غالباً ما تكون الأم) تنطبع دون غيرها، وبشكل دائم، في الجهاز العصبي المركزي لهذا الفرخ. وفي حال عزل هذه الفراخ، وتأخير تعريضها لمثير متحرك مدة تزيد عن ٤٨ ساعة، يضعف عندها سلوك التعلق أو يتعذر ظهوره تماما (Hoffman, 1987).

لم يزعم لورنس أن مفهوم الانطباع سيكون صالحاً بالنسبة للثدييات أو للبشر. إلا أنه يمكن ملاحظة بعض التشابه في السياق، خصوصاً في بعض الحالات المرضية. إذ يزعم بعضهم في تفسير التوحد (Autism) أنه يعكس عند الطفل الاضطراب في توقيت المرحلة الحساسة المناسبة لحدوث سلوك التعلق. فالولادة المتأخرة لبعض الأطفال، أو النمو السريع للجهاز العصبي (أكثر مما يجب) في المرحلة الجنينية، تدفع هؤلاء الأطفال إلى البحث عن المثيرات في أجسادهم وذواتهم. وهكذا يبدو أن التعلق عندهم يتمركز حول الذات، وهذا ما يفسر انطوائيتهم وتجنبهم المشاركة في التفاعل الاجتماعي.

لقد ترتب على المزاعم السابقة نتائج خطيرة في ميدان علم النفس، وتأثر بعض الباحثين بهذه الملاحظات، وسرعان ما تم الشروع في تعميمها على البشر (Klaus et al., 1979). إذ اعتبرت الساعات الأولى التي تلي الولادة مرحلة حساسة تؤثر تأثيراً عميقاً في تطور التعلق بين الطفل والأم. فالنمو السوي للطفل يرتبط بعلاقته الأولى مع الأم. إذ إن الانقطاع في هذه العلاقة ولو كان قصيراً يمكن أن يؤدي إلى اضطراب عميق في السلوك في مراحل لاحقة.

وتعاقبت البحوث بعد الحرب العالمية الثانية، مما أسهم في توضيح مفاهيم المرحلة الحساسة وسلوك التعلق وغيرها. وفي دراسة هوفمان يخلص إلى القول إن الطبيعة جعلت من مفهوم التأثير المباشر للمحيط والذي لا رجعة فيه، مفهوماً ضيق التطبيق. فالتعلق أو التحالف الاجتماعي يكون نتيجة للتعلم، وهو أكثر مرونة مما افترضه البعض إذ يكون من الممكن ترميم بعض التجارب القاسية من خلال الاستمرارية والتوسع في تأثير التعلم.

٥ – تكيف السلوك مع شروط البيئة

يأخذ السلوك الفطري صيغة محددة عند جميع أفراد النوع، ويبدو ثابتاً في الوسط المعتاد للكائن الحي. وبالرغم من تميز هذا السلوك بالثبات والاستقرار، إلا أنه عرضة للتأثر العميق بشروط المحيط عندما تتغير بشكل جذري. يصنف النمل – مثلاً – جميع فصائل النمل في صنفين: الأصدقاء والأعداء، ويتعامل مع كل صنف منهما على نحو مختلف جداً، فيتوجب على النملة أن تتعلم من هو الصديق ومن هو العدو. إن تربية النمل بطريقة تجريبية في وكر لصنف آخر (معاد) يؤثر في تعلم النملة فيما بعد إذ ينعكس الأمر فتعامل النملة النوع المعادي معاملة الأصدقاء وتعامل أفراد النوع نفسه معاملة الأعداء.

ليس من الدقة أن ننظر إلى السلوك الفطري على أنه سلوك وراثي. فالوراثة تعطي القدرة الكافية التي تسمح بتطور نظام سلوكي معين. إلا أن هذا النظام السلوكي يختلف بطبيعته وبصيغته باختلاف شروط المحيط الذي تطور ضمنه(٥).

إن المنظومة السلوكية – كالمنظومة العضوية – لا يمكنها أن تسهم في بقاء النوع إلا إذا تطورت ووضعت على المحك في محيط يوفر حدوداً معينة تسمح بذلك. فأعضاء الحوت تتمتع بفاعلية عالية عند وجوده في المحيطات، أما إذا نقل منها فتفقد هذه الأعضاء معظم فعاليتها. كذلك بالنسبة لنظام سلوكي ما، فقد يكون مناسباً في محيط معين في حين قد يقود إلى العقم والموت في محيط آخر. إن الأجهزة العضوية والسلوكية تفقد فعاليتها، وتكون غير مثمرة إذا طلب منها التعامل مع محيط لم يسبق لها التكيف معه(٦).

ومن وجهة النظر البيولوجية يعد مفهوم التكيف مفهوماً أساسياً. فالقدرة على التكيف لأية بنية بيولوجية أو فيزيولوجية أو سلوكية تكون نتيجة للانتخاب الطبيعي، والذي أدى في محيط معين، إلى النجاح في التكاثر، وبالنتيجة أدى إلى المحافظة على الأنواع الأكثر تلاؤماً. وهكذا ينظر الإيثولوجيون إلى السلوك من خلال وظيفته في التكيف وفي التكاثر أي في المحافظة على بقاء النوع.

يوجد سياقان لهما أهمية خاصة بالنسبة لعلم النفس، ويمثلان فائدة كبيرة في ميدان نمو الطفل في المراحل المبكرة: آلية إطلاق السلوك الغريزية، وذاك النوع من الإشراط الذي سماه لورنز الانطباع (Imprinting). وإذا لم يتقدم الإيثولوجيون إلى الأمام نحو مراحل عمرية لاحقة، فهذا بلاشك يعود إلى الاعتقاد بأن تقدم النمو يجعل التأثير الثقافي يطغى على الأسس البيولوجية في النمو.

تطورت البحوث التي جعلت من سلوك الطفل في مراحله المبكرة موضوعاً أساسياً، وتعد هذه الدراسات نقطة تقاطع مهمة بين الإيثولوجيا وعلم النفس، أثرت معارفنا، خصوصاً فيما يتعلق بتطور سلوك التواصل عند الطفل الحديث الولادة.

٦ – السلوك البشري من منظور إيثولوجي

يتميز الإنسان من غيره من الكائنات بقدرته على التغيير والتجديد في محيطه، إذ تمكن من توسيع الأوساط التي مكنته من العمل والتكاثر والبقاء في شروط شديدة التعقيد. لقد تمكن الإنسان من التغيير الجذري في شروط المحيط، إذ اصطنع – خصوصاً خلال عدة من آلاف السنين الماضية – جملة من الأوساط الجديدة، وسمحت هذه التغييرات بتضاعف سريع لسكان العالم.

أما بالنسبة للكائنات الأخرى التي يتميز محيطها بالاستقرار النسبي، فهو لا يتيغر إلا بشكل محدود، ويحدث هذا التغيير ببطء شديد، فكل نوع يعيش في وسط كبير التشابه مع ذلك الوسط الذي تطورت ضمنه الأنظمة السلوكية للنوع وعملت بشكل ملائم. فالمحيط الذي تعيش ضمنه الأنواع اليوم شديد التشابه مع نفس المحيط الذي شهد تطور كل نوع من هذه الأنواع.

إن التغييرات الجوهرية التي أحدثها الإنسان في محيطه، أدت إلى تجاوز مبدأ الانتخاب الطبيعي بدرجة كبيرة. فمحيط الإنسان المتمدن أو نصف المتمدن لا يتطابق مع المحيط الذي سمح لأنظمة السلوك الفطرية بالتطور والتكيف.

تعدل الأنواع الأخرى في محيطها أيضاً، فذلك لا يقتصر على الإنسان وحده، فالعصافير والحشرات تبني أعشاشها، إلا أن ذلك يكون نتاجاً للسلوك الفطري الذي

يظهر بصورة شبه آلية، وهذا يساعد على إقامة التوازن بين النوع والمحيط. على خلاف التغيرات التي يحدثها الإنسان في محيطه فهي ليست نتاج السلوك الفطري وإنما نتاج التقاليد الثقافية التي تنتقل من جيل إلى جيل عبر التواصل. ويتسارع التطور الثقافي تسارعاً مدهشاً في عصرنا الحالي، بسبب التقدم التكنولوجي الهائل مما يؤدي إلى اختلال التوازن بين الإنسان ومحيطه، فالعلاقة بين الطرفين فقدت استقرارها منذ الثورة الصناعية وازداد ذلك في عصر الثورة الإلكترونية.

يأخذ السلوك الاجتماعي أهمية خاصة، بالنسبة للإيثولوجيين، السلوك الذي يمكن الفرد من التكيف مع المحيط، ومن التواصل مع الآخرين. ويلح هذا الاتجاه على أهمية القدرات الاجتماعية التي تظهر في أثناء تفاعل الفرد مع أقرانه. وهذا يتطلب أن يمتلك الفرد موسوعة سلوكية متنوعة تمكنه من التفاعل الاجتماعي، وهذا ما يسمى بالقدرات الاجتماعية. ويتعذر قياس هذه القدرات بواسطة معايير الذكاء (I.Q.) أو بواسطة مقاييس بياجيه. لأن هذه المقاييس تركز المحيط المادي أكثر من تركيزها المحيط الاجتماعي (Mueller, 1979).

لقد فتحت الإيثولوجيا آفاقاً جديدة أمام العلوم الإنسانية عامة وأمام التربية وعلم النفس خاصة، ولا تزال تتفاعل مع هذه العلوم، وأسهمت في انطلاقة البحوث خصوصاً في ميدان الطفولة (Mc-Grew, 1970 - 1972; Blurton-John, 1970 - 1972).

تركزت البحوث في ميدان علم النفس في دراسة ردود الفعل الخاصة دراسة موضوعية في شروط استثنائية، تجريبية داخل المختبرات، مما حمل لورنس على التشكيك في مدى تمثيل النتائج المخبرية للظاهرة المدروسة بالمقارنة مع ملاحظة هذه الظاهرة في إطارها الطبيعي المعتاد (McGrew, 1970).

إن ملاحظة تنظيم سلوك الطفل في حالات «طبيعية» اعتيادية في حياته اليومية، يعد من أهم المبادئ الإيثولوجية. إلا أنه من الخطأ الاعتقاد بأن المنهج الإيثولوجي يقتصر على الملاحظات في الوسط الطبيعي المعتاد، فالتحقق من علاقات السببية بين

الظاهرة الملاحظة في الميدان الطبيعي المألوف يتطلب، في بعض الأحيان، اللجوء إلى التجريب.

لعل أبحاث بليرتون جون وماكرو (Blurton Jones, 1972; McGrew, 1972) تشكل الخطوات الأولى في ميدان إيثولوجيا الطفل، لقد حاولا القيام بجرد مفصل للسلوك الذي يمكن ملاحظته عند الطفل (حركات جسدية، تعابير وجهية، إشارات مختلفة وإصدارات صوتية) خاصة في الأوساط البريطانية ما قبل المدرسية. لقد مهدت هذه الأبحاث الطريق إلى تحديد كيفية انتظام مجموعة سلوكية في وصلة تفاعلية. وأدت هذه الطريق إلى تصنيف السلوك في مجموعات كبيرة:

- السلوك الاجتماعي، لعب المعركة والسلوك العدواني (Blurton Jones, 1972).
- السلوك غير العدواني، وشبه العدواني، والسلوك العدواني (McGrew, 1972).
- السلوك الانتسابي (الانضوائي) والسلوك العدواني (Strayer, 1976; 1978).
- السلوك الملطف، سلوك الخوف والتراجع، والسلوك العدواني وكذلك السلوك المتذبذب وسلوك العزلة (Montagner, 1978).

إن دراسة سلوك الأطفال في حالات التفاعل الاجتماعي جعل مساهمة الإيثولوجيين مساهمة أصيلة في المعارف المتعلقة باجتماعية الطفل (أي تمكنه من السلوك الضروري للحياة الاجتماعية) وتعرف قدراته الاجتماعية والآليات التي تمكنه من تطوير التفاعل المناسب مع خصائص الوسط الاجتماعي.

إن تطوير مثل هذه الدراسات والبحوث خصوصاً المتعلقة منها بسلوك الطفل يعد في غاية الأهمية لنتمكن من تفهم أفضل لنمو الطفل وتكامل شخصيته والعوامل التي يمكن أن توفر له تطوراً مناسباً ومتوازناً، وتمكنه من مسايرة العصر، ومن تكيف أفضل في عالم تسوده التغيرات السريعة في الميادين العلمية والتقنية والثقافية والاجتماعية.

التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس:

إن نقاط التقاطع والالتقاء بين الإيثولوجيا وعلم النفس قديمة ومستمرة وقطع

التفاعل بينهما مراحل مهمة، خصوصاً عندما تمخض عن ولادة ما يسمى الإيثوسيكولوجي. وتعد الداروينية نقطة مهمة في هذا اللقاء التاريخي (Campan et Le Camus, 1986). ففي نهاية القرن التاسع عشر وتحت تأثير داروين تطور علم النفس في اتجاهين أساسيين:

- علم النفس المقارن التجريبي، الطبيعي والقريب من دراسة السلوك أو ما سيسمى فيما بعد بالإيثولوجيا.
- علم النفس البشري والذي سيبقى قريباً من الفلسفة قبل أن يصبح علمياً وتجريبياً واجتماعياً وإكلينيكياً.

وتمكن علم النفس المقارن من تمثل الوظائف العقلية التي يفصح عنها السلوك. إلا أنه اتسم في بداية القرن العشرين بالاختزالية عندما تمثل المكتشفات الفيزيولوجية، خصوصاً ما يتعلق بالجهاز العصبي، وكذلك عندما تمثل تطور البحوث في ميدان الأفعال المنعكسة والنيروفيزيولوجيا. وفي هذا الإطار أوضح ثورندايك أنه يمكن تفسير جوانب مهمة في علم النفس الحيواني والبشري بقانون الأثر؛ أي بواسطة التعزيز المرتبط بالمثير – الاستجابة في ظاهرة التعلم، فالسلوك المكتسب تحكمه قوانين ميكانيكية. وتطور هذا الاتجاه في التفكير تطوراً كبيراً مع أبحاث بافلوف في الأفعال المنعكسة الشرطية التي تم تعميمها على الإنسان. مما مهد الطريق لتطور المدرسة السلوكية التي عممت الصيغة «مثير» – استجابة لكل أشكال السلوك، عند جميع الأنواع بما فيها الإنسان.

وتتقاطع الإيثولوجيا مع علم النفس التطوري الذي يلح على أهمية الأصل البيولوجي للآليات النفسية المختلفة[٧]. إذ تعتبر الفكرة الأساسية في علم النفس التطوري أن الآليات النفسية – كما هو الأمر بالنسبة للآليات البيولوجية – خضعت للتطور عبر ملايين السنين في سياق من الانتخاب الطبيعي. فالقول إن الآليات النفسية – كالإدراك أو غيره – تطورت عبر الانتخاب الطبيعي، يعني أنها تستند إلى قاعدة وراثية، وهذا مكن الإنسان في الماضي من حل الكثير من المشكلات المتعلقة

بالبقاء، وفي زيادة فرص التكاثر. والمثال الذي يمكن أن يوضح هذه الآليات النفسية، هو الميل إلى المذاق الحلو. فهذا التفضيل الغذائي هو آلية نفسية، ذات أساس بيولوجي. فنحن لدينا هذا التفضيل للحلو، لأنه أدى إلى زيادة فرص البقاء، عند أجدادنا، عبر ماضينا التطوري. فالفاكهة ذات المذاق الحلو تتمتع بقيمة غذائية كبيرة، وهذا أدى إلى زيادة فرص الاستمرار في البقاء للجينات ذات الصلة بالمذاق الحلو(٧).

وتهتم الإيثولوجيا بدراسة القاعدة البيولوجية للسلوك، في نموها وتطورها وأسبابها. وجاء هذا الاهتمام ردة فعل على تقليل بعض علماء النفس من أهمية الأسس البيولوجية للسلوك، أو تجاهلها تماماً، كما ظهر ذلك بوضوح في المدرسة السلوكية (واطسون).

ويرى الإيثولوجيون أن الفرد مزود، منذ الولادة، بعدد من الاستجابات الغريزية التي تموضعت في العتاد الوراثي للنوع عبر التطور. فهذا البرنامج السلوكي الوراثي، تطور نتيجة للسياق الدارويني في الانتخاب الطبيعي. إذ إن متطلبات المحيط وضغوطه تصطدم بالأفراد، عند جميع الأنواع، فالأفراد الذين يمتلكون خصائص أكثر تكيفاً، فقط دون غيرهم، يحالفهم الحظ بالبقاء وبتمرير هذه الخصائص إلى ذريتهم. وينتخب كل نوع أشكالاً محددة من السلوك الذي سيستمر، لأنه يكون مفيداً لبعض الوظائف التي تؤدي إلى زيادة فرص البقاء للفرد وللنوع (Blurton-Jones, 1972).

ويتبنى الإيثولوجيون منهج الملاحظة الطبيعية في دراسة السلوك، لاعتقادهم أن السلوك المبرمج وراثياً الذي يؤثر في النمو، يمكن تحديده وفهمه، بشكل أفضل، إذا لوحظ في وضع سبق أن تكيف معه؛ أي في الوسط الطبيعي. ويلح الإيثولوجيون على ضرورة ملاحظة السلوك، في تعبيره العفوي، في الوسط الطبيعي المعتاد، دون تدخل المجرب. وهذا يفسر انتقاداتهم القوية التي وجهت لنتائج البحوث المتعلقة بالسلوك البشري التي أجريت ضمن شروط تجريبية مصطنعة. إذ تؤدي هذه الشروط إلى

تعديل الظاهرة السلوكية، وهذا ما يضع موضع الشك النتائج التي تم الحصول عليها في شروط تجريبية (قنطار ١٩٩١).

إنه من غير المفيد ملاحظة الاستجابات الغريزية نحو المحيط في وضع مخبري مصطنع. إلا أن ذلك لا يعني أن الإيثولوجيين لا يقومون بالتجريب. إذ لابد من التجريب أحياناً، في المختبر أو في ظروف مصطنعة، لتأكيد فرضية ما أو لتوضيح ملاحظة أجريت في الوسط الطبيعي. كما أنه يصعب الحديث عن وسط طبيعي عند الإنسان المعاصر الذي أصبح يعيش في أوساط مصطنعة إلى حد بعيد، فيقصد بذلك الوسط المألوف الذي تعوّده الفرد.

وتهيأت الفرصة للتفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس مع تطور ملاحظات الإيثولوجيين في خطواتهم الوصفية والتجريبية في دراسة السلوك. إلا أن هذا التفاعل في مستواه الأول بدأ بالتعارض العنيف حول السلوك الغريزي، وتحديده الفطري أو المكتسب، إلى أن قام لورنس بدراسة النشاط الخاص لكل نوع من الأنواع، مع تركيز البعد العفوي الطبيعي للتعبير السلوكي.

أما المستوى الآخر للتفاعل بين علم النفس والإيثولوجيا فتمثل في التقارب بينهما. إذ ساهمت مؤلفات الفرنسي فالون في التفاعل الإيجابي بينهما حيث دافع فالون عن منهج ملاحظة السلوك في الوسط الطبيعي، ولفت الانتباه إلى أهمية الاتصال اللاكلامي عند الطفل. وأخذ هذا التفاعل أبعاده العميقة مع نظرية بويلبي وانسوورث في سلوك التعلق. إذ تم تبني المناهج والمفاهيم والصيغ التي اقترحتها الإيثولوجيا.

وأخذت العلاقة بين علم النفس والإيثولوجيا، منذ عام ١٩٧٠ عمقاً جديداً بعد ولادة الإيثولوجيا البشرية، وتميزت هذه المرحلة بنقطتين أساسيتين:

١ – تبني المنهج الطبيعي في البحث، من قبل علماء النفس، المنهج القائم على ملاحظة السلوك البشري في ظروف الحياة المعتادة، كما يفعل الإيثولوجيون عند ملاحظة مختلف الأنواع في أوساطها الطبيعية.

٢ – تبني الطرائق الوصفية، من قبل علماء النفس، التي كانت مستخدمة في ميدان الإيثولوجيا، خصوصاً تلك الطرائق التي تسمح بالحصول على معطيات رقمية كمية وبناء قاموس الأفعال الحركية، ودراسة تكرار السلوك ومدته الزمنية، وتسلسل عناصره المختلفة وتتابعها.

وتتابعت، بعد ذلك، الدراسات التي تتناول سلوك الاتصال عند الطفل، خصوصاً الاتصال اللاكلامي قبل اكتساب اللغة، وكذلك مختلف جوانب السلوك الإنساني في حالات مختلفة من الحياة اليومية المعتادة.

لقد تمكنت الإيثولوجيا في العقود الأخيرة من إنجاز الكثير، حيث فتحت آفاقاً جديدة في ميدان علم النفس، وادى الحوار بين علماء النفس والإيثولوجيين إلى بلورة فكرتين أساسيتين:

١ – أهمية التفاعل مع الآخر في تكوين السلوك الفردي، وضرورة تحديد مفهوم العلاقة وطبيعة الآليات التي تحمل فردين اثنين على التعايش والبقاء معاً. إن إلحاح الإيثولوجيا على أهمية التفاعل بين الكائن الحي وأقرانه، وتركيز النشاط الاجتماعي في المجموعة، جعل الإيثولوجيا تنجز ما تأخر عن فعله علم النفس (Zazzo, 1975).

٢ – تحديد منهج مناسب للمقارنة بين آليات مختلفة، يمكن أن تقوم بوظائف متطابقة. إذ يمكن أن تسهم دراسة الأنواع الأخرى – ولو جزئياً – في توضيح بعض جوانب السلوك الإنساني. إلا أن المقارنة بين السلوك الحيواني والسلوك البشري يجب ألا يدفعنا إلى الوقوع في شرك التبسيط المفرط والاختصار المبتور والتعميم السريع. فدراسة الأنظمة السلوكية لأنواع مختلفة تتطلب البحث الدقيق المعمق والمقارنة المنهجية، ولكي تمكننا من تفهم أفضل لهذه الأنظمة، خصوصاً تلك المتعلقة بالبشر.

وساهم الإيثولوجيون في تقدم البحوث في العقود الأخيرة، خصوصاً فيما يتعلق منها بسلوك الطفل في المرحلة قبل المدرسة، إذ يتميز هذا السلوك بنشاطين أساسيين:

- الاستطلاع واستكشاف المحيط.
- اللعب.

ويتوقف تكيف الطفل وتوافقه مع بيئته – إلى حد كبير – على هذين النشاطين. ويتميز اللعب من الاستطلاع في كون بنية اللعب أكثر تماسكاً وتعقيداً وأكثر مرونة من سلوك الاستطلاع. ويتوقف سلوك الاستطلاع حالما يتمثل الطفل جدة المحيط الذي يتعرف إليه للمرة الأولى، في حين يتزايد سلوك اللعب. ولكي يحقق سلوك الاستطلاع وظيفته لابد أن يمتلك الطفل درجة معينة من التنظيم تسمح لهذا السلوك أن يكون فعالاً (Provost, 1985).

وفي المرحلة ما قبل المدرسة، يكون سلوك الاستطلاع عند الطفل، على درجة عالية من التنظيم. يتركز هذا السلوك في منطقة محدودة من المحيط، للحد من كمية المثيرات، مما يسمح للطفل باستكشاف المحيط، تدريجياً، وبصورة منهجية، مما يسهل على الطفل تمثل الحالة الجديدة. ولهذا السلوك أهمية خاصة في تكيف الطفل مع وسطه، الذي يستخدم استراتيجية متماسكة أكثر فأكثر مع تقدم العمر، مما يزيد من فعالية هذا التكيف.

وتنمو القدرات المعرفية عند الطفل نمواً مهماً في بداية العام الثالث من العمر مما يمكن الطفل من إعادة تنظيم سلوك الاستكشاف الذي سيكون على درجة من الاستقرار في السنتين الثالثة والرابعة من العمر.

انصب اهتمام الإيثولوجيين على دراسة سلوك الاتصال عند الطفل، وتطور السلوك الاجتماعي في السنوات الأولى من الحياة. واحتلت دراسة التفاعل بين الطفل والأم مرتبة الصدارة في هذه البحوث. كما ازداد الاهتمام بدراسة التفاعل بين الطفل والأتراب، وتأثير الأتراب في نمو الطفل وتطوره في المراحل النمائية المبكرة.

ثانياً - نواتج أثمر عنها التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس

لقد أدى التفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس إلى نتائج مثمرة. سنحاول في هذه الدراسة تركيز البحوث التي تناولت بعض أشكال السلوك، وبخاصة السلوك الذي له أهمية حيوية بالنسبة للفرد، ويستند، من وجهة نظر الإيثولوجيين، إلى قاعدة فطرية بيولوجية. ففي ميدان النمو تم إلقاء الضوء على جوانب مهمة من حياة الطفل عبر مراحل نموه المختلفة. إذ تأخذ بعض أشكال السلوك أهمية خاصة في الدراسات الإيثولوجية – النفسية ومنها:

١ – سلوك الاتصال، تطور نظام الاتصال اللاكلامي عند الطفل.

٢ – سلوك التعلق أي العلاقة القوية التي تربط الصغير بالأم.

٣ – التفاعل بين الطفل والأقران.

٤ – الفروق بين الجنسين.

٥ – السلوك العدواني.

١ – سلوك الاتصال وتطور نظام الاتصال اللاكلامي عند الطفل

تمكن الإنسان بفضل قدرته على الاتصال مع الأفراد الآخرين من أبناء جنسه من حل مشكلاته الأساسية المتعلقة ببقاء النوع وتطوره باستمرار. لأن ما يميز الإنسان من غيره من الكائنات، ليس قدرته على استعمال الوسائل والأدوات فحسب، وإنما قدرته على الاتصال، ونقل خبراته المكتسبة من جيل إلى جيل من خلال هذا الاتصال.

تهتم البحوث الحديثة بدراسة سلوك الاتصال؛ أي كل أشكال السلوك التي تساهم في التواصل بين الفرد والآخرين؛ لأن الطفل يعيش منذ الولادة في محيط

اجتماعي، يصعب عليه البقاء خارج هذا المحيط، فسلوكه ينمو ويتطور في ظل تأثير الآخرين. كما يرتبط تطور التفاعل الاجتماعي عند الطفل بتطور قدرته على التواصل.

إن التفاعل الاجتماعي بالنسبة للصغير – كالأوكسجين – ضرورة أساسية، إنها ضرورة بيولوجية تحدد حاجة الطفل إلى التواصل الاجتماعي. إذ يتمكن الطفل تدريجياً، بواسطة التفاعل الاجتماعي، من امتلاك الوسائل الضرورية للحياة الاجتماعية، ومن اكتساب القواعد الصحية وطريقة الطعام وطريقة اللباس، ومن إدراك مفاهيم الخطأ والصواب. ويعد ذلك درجة مهمة في تكيف الطفل مع محيطه ومع بيئته الثقافية التي ينشأ في إطارها(٨).

يجب على القدرات الاجتماعية – من وجهة النظر الإيثولوجية – أن تعكس الجانب الذي يمكن السلوك من التكيف مع المحيط، مما يستوجب أن يمتلك الكائن الحي منظومة سلوكية متنوعة تمكنه من إقامة التواصل مع الآخرين، والتفاعل الاجتماعي معهم، ويتعذر على اختبارات الذكاء قياس هذه القدرات الاجتماعية عند الطفل لأن هذه المقاييس تركز المحيط المادي أكثر من تركيزها المحيط الاجتماعي(٩).

وتجدر الإشارة إلى أن التواصل قبل الثانية من العمر يستند إلى عناصر سلوكية غير كلامية. إذ تساهم الحركات الجسدية والإشارات المختلفة والتعابير الوجهية والإصدارات الصوتية مساهمة أساسية في التفاعل الاجتماعي.

يعتمد نظام الاتصال غير الكلامي على الرموز والإشارات والتعابير والحركات الجسدية المختلفة، وتظهر أهمية هذا النظام عند الطفل في المراحل النمائية الأولى، قبل تطور النظام الكلامي. ويستمر هذا النظام من الاتصال بالقيام بدور مهم عند الكبار لأنه يندمج مع نظام التواصل الكلامي، حيث يتم الاتصال ليس فقط بواسطة الكلام بل أيضاً بواسطة الإشارات والحركات والرموز والتعابير المختلفة.

يولد الطفل البشري وهو مزود بآليات تمكنه من التواصل مع الآخرين والتأثير في سلوكهم، إذ يمكنه التعبير بطرائق مختلفة، تشكل **الحركات الجسدية** عنصراً مهماً من عناصر سلوك الاتصال يتمكن الصغير بواسطتها من التواصل

والتفاعل مع محيطه الاجتماعي، وتأخذ هذه الحركات أشكالاً متعددة، في سياق اتصالي محدد. ولعل درجة اليقظة أو درجة الانتباه من أكثر العوامل أهمية في هذا التفاعل. فالقدرة على تلقي الإشارات والرموز وتحليلها وإصدار الاستجابات المناسبة تتأثر بدرجة اليقظة ومستوى الانتباه. فما هي هذه العناصر الاتصالية؟ وما هي وظائفها؟

١ – ١ – الوظيفة الاتصالية لتعبير الوجه (Facial Expression)

تعد التعابير الوجهية من أهم العناصر الجسدية وأكثرها تأثيراً في التواصل. إذ تشكل قاعدة الحياة الانفعالية؛ مثل انفعالات اللذة والكدر، والغضب، والخوف، والفرح، والحزن والاشمئزاز والرفض. وتكون هذه التعابير حاضرة عند الولادة وتتأثر قليلاً بالحياة الاجتماعية.

يرى داروين أن بقاء الأنواع الاجتماعية العليا يعتمد إلى حد بعيد على قابليتها للتواصل من جهة، وعلى قدرة أعضائها الجسدية المختلفة في توفير فرص المجابهة أو الهرب من جهة أخرى. ويحاول الباحثون معرفة كيف يتمكن الإنسان من اكتساب التعابير الخاصة التي تقوم بوظيفة مهمة في التواصل؟ وفيما إذا كانت هذه التعابير فطرية متموضعة في العتاد الوراثي للنوع عبر سياق التطور مثلها مثل الأعضاء الجسدية، أم هي مكتسبة؟

أوضحت الكثير من البحوث أن عدداً كبيراً من التعابير الوجهية تكون حاضرة عند الطفل الحديث الولادة حيث تكون قريبة مما هي عليه عند الكبار. إلا أن هذه التعابير لا يكون لها عند المولود نفس المعاني التي تحملها عند الكبار. وتتصف التعابير الوجهية عند الصغير بدرجة عالية من النضج العصبي – العضلي، وتندمج حركة العضل الوجهي في بعض الاستجابات لتأخذ دلالة اجتماعية(١٠).

يمكن ملاحظة الفروق الفردية، بين الصغار منذ الولادة، عند تفحص التعابير الوجهية المبكرة. فدرجة هذا الاندماج العضلي العصبي لتقاسيم الوجه تؤثر منذ البداية في طبيعة الإشارات والرموز المختلفة التي ستلعب دوراً حيوياً في سلوك

الاتصال عند الطفل، وفي قدرته على التفاعل الاجتماعي، كما سيؤثر أيضاً في نوعية وكمية المثيرات الاجتماعية التي سيتلقاها الطفل من بيئته الاجتماعية، لأن الإدراك المبكر لشخصية الطفل والموقف منه يتأثران – إلى حد بعيد – بخصائص تعابيره الوجهية وطبيعتها.

١ – ٢ – تعرف التعابير الانفعالية الوجهية

تهتم البحوث الحديثة بدراسة دور الحركات الوجهية في الانفعال وتأثير التعابير الوجهية في هذا السياق النفسي[١١]. وبهدف إلقاء الضوء على هذه الجوانب، تتجه البحوث في هذا الميدان في اتجاهات ثلاثة:

أ – المقارنة بين الأنواع المختلفة.

ب – المقارنة بين الجماعات الاجتماعية – الثقافية.

ت – التحليل النمائي التطوري أثناء المراحل المختلفة من نمو الفرد.

أ – **المقارنة بين الأنواع المختلفة.** أوضحت مقارنة التعبير الوجهي بين النوع البشري والرئيسات التشابه التدريجي الوظيفي، ما حمل على الافتراض بالأصل التطوري للتقاسيم الوجهية التي تشكل القاعدة البيولوجية للانفعالات المختلفة عند الإنسان.

ب – **المقارنة بين الجماعات الاجتماعية – الثقافية.** قام الكثير من العلماء الإيثولوجيين والأنثروبولوجيين وعلماء النفس بمقارنة التعابير الوجهية بين مجموعات ثقافية مختلفة، وأدى ذلك إلى بلورة فكرتين أساسيتين: الصفة الكلية أو النسبية لهذه التعابير. فوجهة النظر الكلية مشتقة من التفسير الداروينى والإيثولوجي الذي يرى أن التعبير الوجهي للانفعالات يكون متشابهاً عند جميع أفراد النوع البشري، مما يستوجب الاعتقاد بالتحديد الوراثي لهذه التعابير. ومن وجهة النظر هذه، يصعب الأخذ بالحسبان الفروق الثقافية المهمة التي تميز مجتمعاً ما عن غيره. أما وجهة النظر النسبية فتؤكد أهمية تنوع التعابير الوجهية وتميزها ببعض الخصائص استناداً إلى الانتماء الثقافي، واختلافها باختلاف الزمرة الاجتماعية (Eibl-Eibesfeldt, 1979).

ت – ويوجد اتجاه ثالث يمثل الوسط بين وجهتي النظر السابقتين يميل الأنثروبولوجيون إلى تبنيه، فهم يتفقون مع وجهة النظر الكلية التي ترى أن الانفعالات الأساسية الستة (الفرح، الدهشة أو المفاجأة، الخوف، القرف أو الاشمئزاز، الغضب، الحزن) تستند إلى قاعدة فطرية بيولوجية، ولكل انفعال من هذه الانفعالات خصائص عضلية وجهية، أم الفروق الثقافية التي نلاحظها بين مجتمعات مختلفة فيمكن تفسيرها في مستويات ثلاثة:

– في الحوادث التي يمكن أن تثير الانفعال. فعلى الرغم من أن بعض هذه الحوادث أو المثيرات يمكن أن يكون كلياً شمولياً. فإن معظم هذه الحوادث أو المثيرات تكون متعلمة ومكتسبة.

– تعد قواعد التعبير عن الانفعالات المختلفة، وأساليب إظهار هذه الانفعالات، من أهم مصادر التنوع الثقافي. ففي المواقف الاجتماعية، يتبنى الأفراد استراتيجية مختلفة في صياغة التعابير الوجهية الانفعالية، وتختلف هذه الاستراتيجية من مجتمع إلى آخر، استناداً إلى اختلاف القواعد الاجتماعية التي تحكمها.

– أما المصدر الثالث الذي يبين التنوع الاجتماعي الثقافي في التعبير الانفعالي فيتعلق بنتائج الانفعال. فالفرد يتعلم التصرف نحو انفعاله على نحو معين، متأثراً – إلى حد كبير – بالثقافة السائدة في الزمرة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

١ – ٣ – تطور تعرف التعابير الوجهية عند الطفل

يميز الطفل، في الشهر الثالث من العمر، الوجه البشري من غيره من الأشكال والمثيرات البصرية، ويصبح هذا التمييز أكثر دقة فيما بعد. إذ يصبح الوجه البشري، في الأشهر اللاحقة، مصدراً للمعلومات المتعلقة بالحالات الانفعالية للأشخاص الذين يراهم الصغير، ففي الشهر الرابع يتمكن الصغير من تعرف التعبير الوجهي لانفعالات الفرح، ثم تتحسن فيما بعد، بانتظام، هذه القدرات على تعرف التعابير الوجهية للانفعالات المختلفة، وتزداد فعاليتها باستمرار، حيث يصبح من الممكن بين

الشهرين الخامس والسابع تمييز انفعالات الغضب والخوف والحزن، في حين لا يعرف بدقة تطور تعرف انفعالات المفاجأة والاشمئزاز عند الصغير(١٢).

وجهت بعض الانتقادات للمنهج الذي استخدم في قياس تعرف الطفل التعابير الوجهية للانفعالات المختلفة، إذ استند هذا القياس إلى المدة الزمنية للتثبيت البصري على المثير الانفعالي. إلا أن ذلك يجعل من الصعب تفسير النتائج، فالصغير شديد الحساسية، ليس فقط للمعلومة الانفعالية التي يحملها التعبير الوجهي، بل أيضاً لخصائص أخرى للمثير المستخدم في التجربة؛ كالجدة والحركة والتعقيد، خاصة إذا تزامن هذا المثير مع صوت بشري.

بعد الثانية من العمر، يمكن تغيير منهج البحث ليصبح أكثر صلاحية إذ يصبح من الممكن الحصول على تقرير كلامي من الطفل حول التعابير الانفعالية التي يلحظها عند الآخرين. وتتطور هذه القدرات في تعرف التعابير الانفعالية المختلفة في السنة الرابعة من العمر مما يستتبع تأثيراً كبيراً في تنظيم السلوك الاجتماعي، وفي تطور دور التعابير الانفعالية في التواصل الاجتماعي.

ويتضح تطور هذه التعابير، بوجه خاص، في شكلين من أشكال السلوك: سلوك الابتسام وسلوك التقليد.

١ – ٤ – سلوك الابتسام

يلاحظ الابتسام الانعكاسي عند الصغير في الأسبوعين الأولين بعد الولادة في أثناء النوم أو عند استرخاء الطفل واقترابه من النوم، ويندر ملاحظة الابتسام أثناء اليقظة. ويتصف سلوك الابتسام في هذه المرحلة بالتنوع، فمنه ما يكون سريعاً ومنه ما يدوم بعض الوقت. ويلاحظ تمدد جانبي الفم أثناء الابتسام، وأحياناً تمدد جانب واحد فقط، ولا يبدو سلوك الابتسام، في هذه المرحلة، على علاقة بأحداث العالم الخارجي، فهو منعكس ذاتي يظهر تلقائياً، يعكس الإثارات العصبية – الفيزيولوجية، ويسمى بالابتسام الانعكاسي.

أما سلوك الابتسام المرتبط بالحوادث الخارجية، فلا يظهر قبل الأسبوع السادس من عمر الصغير، يمكن بعدها إثارة هذا السلوك بمثيرات خارجية، فالوجه الإنساني والصوت والدغدغة وتوجيه النظر نحو الصغير يمكن أن تؤدي إلى إثارة سلوك الابتسام، ويحدث التطور المهم عندما يأخذ سلوك الابتسام طابعاً اجتماعياً مع الاحتفاظ بخصائصه المورفولوجية الأصلية، ويصبح سلوك الابتسام، خلال الشهر الثاني، إشارة اجتماعية فعلية. وبعد الشهر الثالث من عمر الطفل، يتطور هذا السلوك تطوراً جدياً ليصبح وسيلة مهمة عند الطفل لاستجرار سلسلة من الاستجابات المحببة التي تظهرها الأم عندما يبتسم الطفل. وتتنوع استجابات الأم نحو ابتسام الطفل، فهي تضمه وتداعبه بحنو وتبتسم له وتناغيه، فالطفل يظهر سلوك الابتسام للتأثير في محيطه الاجتماعي. وبعد نهاية الشهر الرابع من العمر، يصبح الابتسام أكثر تنسيقاً وأكثر فاعلية ووضوحاً، كما يصبح التعبير الوجهي المرافق للابتسام أكثر تعقيداً من ذي قبل(١٣).

تتزامن مراحل تطور الابتسام مع تطور مواز في قدرات الطفل الحسية والإدراكية، حيث يسمح تطور هذه القدرات بظهور سلوك الابتسام في ظروف متنوعة استجابة لمثيرات مختلفة.

ومما يعطي وزناً كبيراً للقائلين بفطرية سلوك الابتسام ظهور هذا السلوك عند الأطفال العميان منذ الولادة. فالطفل المحروم من القدرة على الإبصار الذي لم يسبق له مشاهدة الابتسام يظهر هذا السلوك دون تعلم مسبق، ويتشابه هذا السلوك عند الأطفال المبصرين والعميان حتى الشهر السادس من العمر، إلا أنه يبدأ بالضعف – كغيره من التعابير الوجهية – عند الأطفال العميان بعد الشهر السادس. فسلوك الابتسام عند العميان أقل جاذبية وأقل إشراقاً منه عند المبصرين. فهذا السلوك – على الرغم من استناده إلى قاعدة فطرية بيولوجية – يحتاج إلى مثيرات المحيط، وإلى تعزيزات مقابلة كي يأخذ أبعاده كاملة، ويتحقق بشكل أمثل.

ويمكن أن نخلص إلى القول: إن سلوك الابتسام يبدأ على شكل منعكس فطري

بسيط، ثم يأخذ أبعاداً اجتماعية إذ يصبح وسيلة سلوكية مهمة في الاتصال بين الطفل ومحيطه الاجتماعي، ثم يندمج سلوك الابتسام في أشكال متعددة من التعابير الوجهية بشكل متسق ومنسجم ويأخذ بالتعقيد خلال مراحل نمو الطفل المختلفة.

لقد أوضحت بعض الدراسات الحديثة أهمية سلوك الابتسام في التبادل الودي بين الطفل والأقران، إذ يكون هذا السلوك الأكثر تكراراً في السنة الثانية من العمر بالمقارنة مع غيره من أشكال السلوك الودية[١٤]. كما يؤدي سلوك الابتسام وظيفة مهمة في تلطيف حدة التفاعل العدائي، وأشارت هذه الدراسة إلى أهمية سلوك الابتسام في تفاعل الطفل مع أقرانه، وفي تطور علاقاته الاجتماعية معهم.

١ – ٥ – سلوك التقليد

لاحظ زازو مصادفة أن طفله البالغ من العمر خمسة وعشرين يوماً يمد لسانه استجابة إلى مد اللسان من قبل زازو نفسه، وتكرر ذلك عدة مرات متتابعة. كرر هذا الباحث نفس التجربة عندما بلغ طفله سبعة وثلاثين يوماً، وحصل على نفس النتائج السابقة، وبعدها أصبح مجرد حضور زازو أمام الطفل يثير، عند هذا الأخير، سلوك مد اللسان (التقليد). وتم التحقق من هذه التجربة فيما بعد حيث تبين أن الطفل يمكنه أن يقلد بعض الحركات في مرحلة مبكرة من العمر، وتتبع استجابة الصغير دائماً سياقاً محدداً إذ يقوم بتثبيت بصره على حركة اللسان المتكررة بانتظام للمجرب، ثم يحرك الطفل فمه ويخرج لسانه مرة أو عدة مرات متتابعة، ويتوقف الطفل عن تثبيت بصره نحو المجرب عندما يعيد إنتاج حركة مد اللسان، كما لو أن إطلاق الحركة وتنفيذها يستدعي توقف التثبيت الحسي – البصري (Zazzo In Nadel, 1986).

تختلف النتائج السابقة مع وجهة نظر بياجيه القائلة إنه من غير الممكن ظهور سلوك التقليد في الشهر الأول من العمر، إذ يحدد بياجيه مرحلة تمتد من عمر شهر إلى خمسة أشهر حيث يمكن ظهور سلوك التقليد، على هامش بعض المنعكسات كالمص والصراخ، إذ يتم بترديد النموذج بشكل أولي. وبعد الشهر السادس يمكن ملاحظة سلوك التقليد بالمعنى الدقيق، وفي مرحلة لاحقة تمتد حتى عمر السنة يمكن

ملاحظة التقليد لنماذج جديدة (Nadel, 1986). ويظهر الطفل سلوك التقليد بحضور النموذج في نهاية السنة الأولى من العمر، أما في الشهر الخامس عشر فإن سلوك التقليد يتطور تطوراً كبيراً حيث يتميز بصفتين أساسيتين:

- يتمكن الطفل من تقليد نموذج جديد بشكل صحيح (التقليد المباشر).
- يتمكن الطفل أيضاً من التقليد بعد غياب النموذج (التقليد المؤجل).

التقليد المبكر عند الطفل

لاحظ بياجيه طفله الصغير في دار الولادة في أوقات مختلفة: في عمر ١٢ ساعة و٣ أيام و٤ أيام و٦ أيام، أشارت هذه الملاحظات إلى أن بكاء الطفل المجاور أو تأوه بياجيه المفتعل ونواحه، يثير بكاء الصغير. خلص بياجيه إلى القول إن البكاء يتميز بخصوصية تثير بكاء الطفل حديث الولادة الذي يبدي استجابة لهذا المثير دون غيره من المثيرات الصوتية. إلا أن بياجيه، عند ملاحظة ذلك، لم يتطرق إلى افتراض حدوث التقليد(١٥).

تعاقبت البحوث التي تناولت سلوك التقليد وأشارت بعض هذه البحوث إلى أن الطفل في عمر ١٢ – ٢١ يوماً يمكنه تقليد بعض التعابير الوجهية، وافترضت بعض البحوث وجود قابلية فطرية لسلوك التقليد، إلا أن ذلك قوبل بانتقادات قوية، ولم يتفق الباحثون على وجود عناصر حاسمة تؤكد ظهور سلوك التقليد في مرحلة مبكرة بعد الولادة(١٦).

بالرغم من أن بعض الدراسات تعزز الفرضية القائلة بظهور سلوك التقليد في الأشهر الأولى أثناء التبادل الاجتماعي بين الطفل والأم، إلا أن ذلك يفتقر إلى الدراسات المنهجية. وتشير الكثير من البحوث إلى أن التقليد في هذا التفاعل يكون في البداية من فعل الأم. إذ تقوم الأم بتقليد الطفل على دفعات متكررة بهدف التعليم، فالأم تريد أن تعلم الطفل سلوكاً ما، لأن تكرار فعل ما أو حركة ما يؤدي إلى تثبيت انتباه الطفل، كما يمكن لهذا التكرار أن يؤدي إلى استجابة الطفل، وإلى إطالة مدة التفاعل بينه وبين الأم. ويبدو تكرار سلوك التقليد وسيلة مهمة لتعليم الطفل ممارسة

بعض أشكال السلوك. وبذلك يكون للتقليد وظيفة تعليمية تربوية، بالإضافة إلى كونه وسيلة للتواصل(١٧).

كان سلوك التقليد في التفاعل بين الأم والطفل موضع اهتمام الكثير من الباحثين. لقد أشارت بعض هذه البحوث إلى أن تقليد الأم للصغير يثير عنده الابتسام ومناغاة الفرح. وعندما يقوم الصغير في عمر ستة الأشهر بتقليد سلوك الأم التي تستجيب بدورها بالابتسام والقبلات وبعض الاستجابات الودية. ويبدو أن تقليد الأم للطفل له وظائف معقدة. فالأم تعيد إنتاج بعض الأفعال والحركات بطريقة خاصة، فتقليد الأم للصغير هو أكثر من مجرد مرآة تعكس سلوك الطفل، بل تحاول الأم، عبر ذلك، أن تأخذ الطفل من عالمه الخاص للتوجه به في اتجاه مختلف، فهي تقلد الطفل بهدف تغيير سلوكه في بعض الأحيان؛ إما عن طريق المبالغة في إعادة إظهار هذا السلوك المقلد، أو عن طريق حذف بعض عناصر هذا السلوك كي يتغير. فمثلاً، عندما يبدأ الطفل بالبكاء تجيب الأم ببكاء سريع قبل أن تنتقل إلى بسط أساريرها والانتقال إلى حالة مختلفة، مما يحمل الطفل على التوقف عن البكاء(١٨).

تلعب الأم دوراً أساسياً في سلوك التقليد. فتكرار تقليدها للطفل، على العكس مما يعتقد البعض، يبلغ أكثر من ضعف تكرار تقليد الطفل لسلوك الأم. إذ أوضحت بعض الدراسات الحديثة أن الأم في حالة التفاعل التلقائي مع الطفل حتى عمر السنتين وفي ظروف الحياة اليومية، تلعب دوراً مهماً في إظهار سلوك التقليد على الرغم من التأثير المتبادل بين سلوك التقليد عند الأم ونظيره عند الطفل.

وتجدر الإشارة إلى أن تكرار سلوك التقليد عند الطفل يرتفع ارتفاعاً جوهرياً في تفاعل الطفل مع الأقران في عامه الثالث، فهل يتزامن هذا الارتفاع بارتفاع مماثل في التفاعل مع الأم؟ تصعب الإجابة عن هذا السؤال في وقتنا الحاضر لعدم وجود دراسات منهجية تتناول سلوك التقليد في التفاعل بين الطفل والأم وبين الطفل والأتراب.

إن دراسة بعض أشكال التواصل غير الكلامي توضح أسبقية هذا التواصل في تفاعل الطفل الحديث الولادة مع محيطه الخارجي، ويستمر ذلك إلى مراحل متقدمة

من نمو الطفل، وحتى بعد تطور اللغة عند الطفل نلاحظ أن التواصل اللاكلامي يشكل عنصراً مهماً في التفاعل الاجتماعي بين الطفل والآخرين في مختلف مراحل العمر. وبعد البلوغ لا يتراجع دور نظام التواصل اللاكلامي في التفاعل عند الكبار، إذ يندمج هذا النظام مع نظام التواصل الكلامي ليزيد من فعاليته وليؤدي دوراً مهماً في التواصل بين البشر.

٢ – سلوك التعلق (attachment behavior)

(اعتمدنا في هذا الجزء على دراستنا لنفس السلوك: قنطار، ٢٠٠٤).

تسمى العلاقة التي تربط الصغير بالأم بالتعلق (attachment) ويستخدم هذا المفهوم للدلالة على **تلك العلاقة القوية المميزة التي تنشأ بين الأم وصغيرها.** ويرتبط حدوث التعلق وتطوره بعوامل كثيرة ومعقدة: عوامل بيولوجية وراثية، وعوامل حسية ونفسية. وتجدر الإشارة إلى مساهمة البحوث التي تناولت سلوك التعلق عند الأنواع الأخرى غير البشرية في إلقاء الضوء على طبيعة التعلق عند الإنسان (Bowlby, 1969; 1973; Schaffer, 1977).

إن ملاحظة مختلف الأنواع تؤكد وجود الصغار حول الأم عند الطيور والمواشي والخيل، وكذلك عند البشر، وربما كان التقارب (المجاورة) بين الأم والصغار، وإعادة هذا التقارب في حال اختلاله من أهم خصائص سلوك التعلق.

تتعرف الأم صغارها دون غيرهم، وكذلك الصغار سرعان ما يتعرفون الأم ويتبعونها، دون غيرها من الكبار، ويعتبر الشذوذ عن ذلك نادراً وحالة غير طبيعية. على الرغم من التشابه في بعض جوانب سلوك التعلق بين الصغير والأم عند الأنواع، إلا أن آلية حدوث التعلق وتطوره تختلف من نوع إلى آخر.

٢ – ١ – التعلق عند العصافير

تعد آلية التعلق السريع عند العصافير مثلاً واضحاً على الطبيعة المعقدة لعلاقات الأهل والصغير وتنوعها. إن الاستجابة المباشرة بين الأم والصغير تعتمد

على برمجة غريزية، إلا أنها تتأثر إلى حد بعيد بمثيرات المحيط. وتختلف درجة التأثر بالمحيط من مرحلة إلى مرحلة أخرى من مراحل النمو، إذ يمكن لنظام سلوكي ما أن يكون شديد التأثر بمثيرات المحيط في مرحلة ما من مراحل النمو، في حين تفقد هذه المثيرات أهميتها في مرحلة أخرى، وربما بشكل نهائي(١٩).

يحدث سلوك اتباع الأم (التعلق) عند فراخ البط والإوز – مثلاً – خلال الساعات الأولى، بعد الإفقاس، فبعد مغادرة البيضة تتبع الفراخ أول شيء يتحرك في مجالها البصري، بغض النظر عن طبيعة هذا الشيء، ثم تتبع هذا الشيء بذاته وتتجنب سواه. فهذا النوع من التعلم السريع باتباع أول مثير متحرك يراه الصغير في محيطه – غالباً الأم – سمي من قبل لورنز (Lorenz) الانطباع (Imprinting) إذ تنطبع صورة هذا المثير في الجهاز العصبي المركزي للصغير، ويتميز هذا الانطباع بالثبات النسبي.

ويتميز الانطباع بحدوثه فقط في مرحلة قصيرة من مراحل النمو، وفي حال حدوثه يصبح من غير الممكن إلغاؤه، وهو يتجاوز قدراً بعينه ليشمل جميع أفراد النوع. ويؤدي الانطباع إلى إيقاظ وتنشيط مجموعة سلوكية (التعلق) لم يسبق ظهورها عند العضوية. إن تنشئة عصفور صغير في حالة من العزلة، تؤدي إلى تعذر حدوث الانطباع، غير أن القابلية لحدوثه تستمر، ولكن ليس إلى ما لا نهاية، فإذا لم يتعرض الصغير خلال الأيام الأولى التي تلي الإفقاس للمثيرات المناسبة تعذر حدوث الانطباع أو التعلق.

يتشابه سياق الانطباع مع بعض حالات التعلم، ويستخدم مفهوم الانطباع حالياً ليعني السياق المؤثر في سلوك التعلق، والذي يجعل هذا السلوك عند صغار الطيور والثدييات يتجه بشكل مفضل ومستقر نحو فرد أو عدة أفراد.

٢ – ٢ – التعلق عند الفئران

تلعب الرائحة دوراً مهماً في التواصل عند الكثير من الثدييات الدنيا، ويتضح تأثير هذا الدور في الروابط التي تقوم بين الأم وصغارها. وتسمى المادة ذات الرائحة

الخاصة الصادرة عن حيوان ما وتؤثر في سلوك حيوان آخر **بالفيرومون** (Pheromone). إن مفرزات **السيكوتروف** (Cecotrophe) **هي تلك الرائحة الخاصة الصادرة عن الفأرة الأم والتي تتميز بتأثيرها في جذب الصغار**، يتصاعد إفراز هذا الفيرومون بعد الولادة ويصل إلى مداه الأقصى في اليوم السادس عشر بعد الولادة (Leon, 1983).

إن حساسية الصغار لهذا الفيرومون ليست ثابتة، فهي تبدي القليل من التأثر به قبل بلوغها اليوم العاشر من العمر، وتصل هذه الحساسية إلى حدها الأعلى في عمر الستة عشر يوماً. فالتغير في جاذبية الأم وفي حساسية الصغير نحو هذه الجاذبية يتزامن مع قدرة الصغير على الحركة والتنقل خارج الوكر، فعمر الستة عشر يوماً هو العمر الذي يقترب من الفطام، وقبل بلوغه عشرة الأيام يبقى الصغير داخل الوكر، وبعدها يبدأ بالخروج بحثاً عن الغذاء، ويعود إلى الوكر معتمداً على رائحة الفيرومون الصادرة عن الأم. وتبدأ استجابة الصغير للفيرومون بالتناقص عندما يتمكن من الاعتماد على نفسه، ومن الحصول على الغذاء بمفرده دون الاعتماد على الأم.

ويؤدي فصل الأم عن الصغار إلى توقف اهتمامها بهم بعد إعادتهم إليها فهي لا ترضعهم نفس المدة المعتادة. إلا أن تزويد الأم بصغار حديثي الولادة، من غير صغارها، يؤدي إلى إطالة أمد سلوك الأمومة، وإلى العناية بالصغار الجدد. **فخصائص الصغار تؤثر في استمرار عناية الأم طالما أنهم بحاجة إلى ذلك.**

لا يتأثر سلوك الأمومة عند الفئران بالمثيرات الحسية فقط، وإنما يخضع لتأثير عوامل هرمونية وعصبية، والتي تعد من أهم العوامل البيولوجية التي يتزامن تأثيرها مع تطور الحمل والولادة والنمو[٢٠].

٢ – ٣ – التعلق عند الثدييات العليا

إن دور الفيرومون غير معروف بدقة عند الثدييات العليا، لذا تتجه البحوث الحديثة إلى إيضاح دور الإفرازات الهرمونية في إقامة التعلق بين الأم وصغارها.

تقوم الأم بعد الولادة بلحس الصغير عند الكثير من الحيوانات العليا، مما يسهل عندها الإدرار والعناية بالصغير، ويجعل تعرف الأم صغيرها ممكناً ويساعده

في إيجاد حلمة الثدي والبدء بالرضاعة بعد الولادة. وتعتبر الحرارة الجسدية ضرورية لحياة الصغير، حيث لا تتمكن صغار معظم الأنواع من المحافظة على درجة الحرارة الجسدية دون أن تقوم الأم باحتضانها بشكل دوري منتظم. ويكون ذلك عامل جذب متبادل بين الأم والصغير.

تشير بعض التجارب إلى أن العلاقة بين مولود الماعز والأم تتحدد في الدقائق الخمس الأولى بعد الولادة. فالإبقاء على الجدي إلى جانب الأم لمدة خمس دقائق مباشرة بعد الولادة، ثم فصله عنها لمدة ساعة، لا يؤثر في تقبل الأم لهذا الجدي بعينه بعد عودته، فهي تقبله في حين ترفض أي جدي آخر. وفي حال فصل المولود بعد الولادة مباشرة، ثم إعادته إلى الأم بعد ساعة واحدة، فهي سترفضه كأي جدي غريب آخر. **فالأم شديدة القابلية ومرتفعة الحساسية لإقامة روابط التعلق مع الصغير خلال فترة قصيرة بعد الولادة**، وبعد انقضاء هذه الفترة ترفض أي صغير(٢١).

تحتل الإصدارات الصوتية مكاناً مهماً في الاتصال والتجاذب بين الأم وصغارها عند هذه الأنواع. فصغير القردة يصدر بكاءً مميزاً عند فصله عن الأم التي تعود إليه لدى سماعها هذه الأصوات.

ويؤثر الاحتكاك الجسدي واللمس في تطور العلاقة بين الأم وصغارها عند القردة. فالملامسة الجسدية والتفلية والتنظيف والتقبيل يتكرر حدوثها بشكل ملحوظ عند القردة. **وهكذا تتفاعل جميع الحواس وتؤثر في سلوك التعلق الذي يعتمد، في تطوره، على تفاعل العوامل الفطرية وعوامل المحيط.**

تتشبث جميع صغار الثدييات بالأم بعد الولادة، باستثناء الطفل البشري، وتستمر العلاقة الجسدية المباشرة طيلة الطفولة الأولى، ولا يبتعد الصغير عن الأم إلا قليلاً، وفي أوقات متباعدة. كما **تعمل الأم بدورها على إبقاء الصغير بالقرب منها**. ومع تقدم العمر تنخفض نسبة الملامسة الجسدية بين الأم والصغير نهاراً. ويبدأ بالابتعاد عن الأم أكثر فأكثر أثناء رحلاته، ولكنه سرعان ما يهرع نحوها عندما يشعر بالخطر، ويستمر بالنوم إلى جانب الأم ليلاً.

وعندما يغيب الصغير عن الأم تطلق نداءً قصيراً باحثة عنه في كل مكان. أما إذا حدث العكس وغابت الأم عن الصغير فهو يطلق نداء طويلاً، وعندما تتعرض الزمرة لخطر ما سرعان ما يتجه الصغير والأم الواحد منهما نحو الآخر. وهكذا تبقى صغار القردة طيلة عامها الأول قريبة من الأم وتتبعها وتنام إلى جانبها، وتبدأ تدريجياً بالابتعاد عن الأم واستطلاع المحيط واللعب مع الأقران، أما في السنة الثانية فتبقى معظم الوقت مع الأقران، وتتسم العلاقة مع الأم بالتأزم، حيث يتوقف إدرار الحليب عند الأم ويعود الحيض وتبدأ بالتزاوج من جديد، وتبدأ برفض الصغير. إلا أنه على الرغم من هذا الرفض يلاحظ أن الأم وكذلك الطفل يتجه أحدهما نحو الآخر في حالة الخطر، وتحاول الأم حماية الصغير إذا تعرض لإزعاج الأقران أو الكبار. ثم تتوقف العلاقة بين الطرفين عندما تضع الأم مولوداً جديداً، وعندها يتجه الصغير نحو الذكور الكبار عند تعرضه للخطر.

وتجدر الإشارة إلى أن **سلوك التعلق يمكن أن ينمو ويتطور تجاه كائن ما بمعزل عن أية حاجة أخرى**، أي دون أن يقوم هذا الكائن بقديم أي معزز للصغير كالغذاء أو الحرارة أو الجنس. وهذا ما تبينه المعطيات التجريبية عند بعض الأنواع، فالخروف الذي ينشأ على صلة بصرية وسمعية وشمية مع كلب لعدة أسابيع يسلك سلوكاً مماثلاً لسلوك الخراف تجاه الأم، فيطلق صيحات الثغاء باحثاً عن الكلب في حال انفصالهما، ويتبعه في كل مكان في حال لقائهما(٢٢).

وكان لهذه البحوث تأثير مهم في نظرية التعلق البشري.

٢ – ٤ – التعلق بين الصغير والأم عند الإنسان

لقد كان لتطور البحوث المتعلقة بسلوك التعلق عند مختلف الأنواع أصداء مهمة في علم النفس. فقد أدت نتائج هذه التجارب إلى خلخلة نظرية التعلق التقليدية المستندة إلى الفرويدية والتحليل النفسي. إذ يعتبر التعلق – من وجهة نظر فرويد – دافعاً ثانوياً، ينمو ويتطور على هامش الدوافع الأساسية في حين يرى بويلبي أن دافع التعلق هو دافع أساسي كدوافع الجوع والعطش والجنس. لأن علاقة الصغير بالكبير

(الأم) ضرورية للنمو الطبيعي كضرورة الغذاء (Bowlby, 1969). لقد تأثر بويلبي بالتجارب السابقة وبملاحظات لورنز التي أثبتت أن دافع التعلق مستقل عن الدوافع الأخرى، إذ يمكن ملاحظة سلوك التعلق عند صغار الإوز والبط دون أن تتلقى أي غذاء أو أي معزز من قبل الأم.

كما عززت تجارب هارلو (Harlow, 1965) على القردة الاتجاه المعارض للنظرية التقليدية التي تعتبر التعلق ميلاً ثانوياً. لقد **أوضح هارلو أن التعلق بين الصغار والأم يمكن أن ينشأ بصورة مستقلة عن الغذاء** وأشارت تجاربه إلى أهمية المثيرات اللمسية في تطور سياق التعلق.

تختلف مدة التعلق من نوع إلى نوع آخر، فهو يستمر عند بعض الأنواع إلى ما قبل البلوغ، ويتوقف في نهاية السنة الأولى عند معظم أنواع الطيور ولا توجد فروق بين الجنسين في ذلك على خلاف الثدييات حيث يتميز الجنسان بفرق أساسي في سلوك التعلق، فالتعلق بالأم عند الإناث يستمر حتى الهرم كما هو الحال عند إناث الغنم في حين تبتعد الذكور عن الأم قبل مرحلة البلوغ.

إن حالة عدم النضج الجسدي عند الطفل البشري عند الولادة ونموه البطيء بعدها يفسر استمرار سلوك التعلق عنده لمدة طويلة بالمقارنة مع الأنواع الأخرى. ويرى بويلبي صاحب نظرية التعلق الحديثة أن روابط الطفل بالأم هي الصيغة الإنسانية لسلوك التعلق الملاحظ عند الأنواع الأخرى، ويؤكد أهمية دراسة سلوك الثدييات العليا في إلقاء الضوء على السلوك الإنساني. وينظر بويلبي إلى سلوك التعلق في هذا السياق التطوري، إلا أنه يؤكد أن المقارنة بين الأنواع يجب أن تؤخذ على درجة من الحذر.

٢ – ٥ – نظريات التعلق

لقد استخدم علماء النفس الكثير من المفاهيم في دراسة العلاقات المبكرة. إلا أن **مفهوم التعلق** (attachment) يحتل مكانة مميزة بين تلك المفاهيم. وساهمت بحوث الإنجليزي جون بويلبي (John Bowlby, 1969; 1973) الذي يرى أن من أهم

خصائص الطفل البشري الميل إلى إقامة روابط قوية مع شخص بعينه. وهذا الميل الطبيعي له قيمة مهمة في المحافظة على بقاء الصغير عبر الحصول على الغذاء والحماية والشعور بالأمن والطمأنينة.

يقر علماء النفس بأهمية علاقات الطفل الأولى وتأثيرها في نموه وفي تكون شخصيته. إذ يقيم الطفل خلال عامه الأول علاقة قوية مع الأم، وتلك حقيقة ثابتة. إلا أن علماء النفس يختلفون حول طبيعة هذه العلاقة ووظيفتها وسياق توثيقها.

تأثرت النظريات التي تفسر علاقة الطفل بالأم – إلى حد بعيد – بنظرية التحليل النفسي وبأفكار فرويد التي سيطرت على علم النفس زمناً طويلاً (Bowlby, 1969). ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات على النحو التالي:

١ – يرى أصحاب الاتجاه الأول أن حاجات الطفل الفيزيولوجية – خاصة حاجته إلى الغذاء والحرارة – تتطلب من يرضيها. ويتعلم الطفل أن الأم مصدر منح وعطاء، وهي من وجهة النظر هذه، موضوع للتغذية وإرضاء الحاجات، وينشأ التعلق على هامش إرضاء هذه الدوافع الأولية، وتسمى هذه النظرية بنظرية الدوافع الثانوية.

٢ – أما أنصار الاتجاه الثاني فيعتقدون أن الصغير يشعر بالندم بعد الولادة بسبب مغادرته جسد الأم وانفصاله عنه، وهو يرغب بالعودة إليه. وتفسر هذه النظرية تعلق الطفل بالأم بأنه يعبر عن رغبته بالعودة إلى بطن الأم والاتحاد بها.

٣ – ويرى الاتجاه الثالث أن حاجة الطفل إلى الثدي هي حاجة غريزية فهو بحاجة إلى مصه وامتلاكه. ويتعلم أن الثدي جزء من الأم، وبسبب ذلك يتعلق بها.

٤ – أما الاتجاه الرابع فيرى أن الطفل يميل إلى التواصل والتشبث بشخص ما فهذه الحاجة موضوع مستقل عن التغذية وعن الحاجات الأخرى.

ويعتبر الاتجاه الأول من أكثر الاتجاهات انتشاراً؛ ففي رأي فرويد يعد التعلق بالثدي المغذي مصدراً للحب[٢٣].

التعلق كدافع أولي

يعتقد بويلبي أن نظرية الدافع الثانوي ليست مقنعة في تفسيرها لظاهرة التعلق عند الإنسان، وهي النظرية التقليدية التي ترى أن التعلق ينمو ويتطور على هامش الدوافع الأساسية كالجوع والجنس. ويرى بويلبي أن التعلق دافع أولي يتميز باستقلالية كبيرة بالنسبة للدوافع الأخرى. فالتعلق حاجة أساسية من حاجات النمو وليس مسألة ثانوية، وهو على نفس الدرجة من الأهمية كدافع الجوع أو دافع الحرارة.

لقد ساهمت البحوث في ميدان الإيثولوجيا في إعادة النظر في طبيعة العلاقة بين الأم والطفل. إن تجارب لورنس (Lorenz, 1935) وهارلو (Harlwo and Harlwo, 1965) وملاحظات بويلبي (Bowlby, 1969)، أدت إلى مراجعة نظرية التعلق التقليدية، إذ أوضحت أن التعلق حاجة أساسية من حاجات النمو بالنسبة للطفل، حاجةقائمة بذاتها ومستقلة عن الحاجات الأخرى، حيث يظهر سلوك التعلق (Attachment Behavior) ويتطور بمعزل عن إرضاء الحاجات الفيزيولوجية الأخرى. وينظر إلى التعلق الآن على أنه دافع أولي – كغيره من الدوافع الأولية الأخرى – يتمتع بوظيفة بيولوجية – نفسية مهمة في نمو الطفل نمواً سوياً من مختلف الجوانب البيولوجية والانفعالية والاجتماعية[٢٤].

يعتبر بويلبي صاحب نظرية التعلق الحديثة التي ترى أن التعلق دافع أولي. لقد حاول بويلبي استخلاص أفكاره بالتوفيق بين نظرية التحليل النفسي ونتائج البحوث في ميدان الإيثولوجيا (Ethology) وهو يرى أن الروابط العاطفية بين الطفل والأم تستند إلى قاعدة بيولوجية تطورية. فالطفل حديث الولادة لديه الاستعداد للمحافظة على وجوده بالقرب من الحاضن (الأم)، وإظهار السلوك الذي يستدعي انتباه الأم وتدخلها.

ويعتقد بويلبي أن التعلق في السنوات الأولى هو عبارة عن نظام سلوكي يهدف إلى المحافظة على وجود الصغير بالقرب من الأم. ويؤدي الانفصال بين الطرفين إلى تنشيط هذا النظام السلوكي بهدف إعادة التجاور بينهما. ففي السنة

الأولى يتم تحقيق هذا الهدف عبر بكاء الطفل وإصداراته الصوتية التي تنتظم بحيث تساعد الطفل في التركيز على حاضن بعينه عادة ما يكون الأم. وعندما يتحقق هذا الهدف – **أي وجود الطفل بالقرب من الأم وعلى صلة معها** – يبدأ سلوك التعلق بالاستقرار، فالطفل لم يعد بحاجة للبكاء لكي يبحث عن الأم.

ويفترض بويلبي أن الطفل لديه **الاستعداد لاستكشاف العالم** من حوله. فهذه الحاجة للاستكشاف واللعب تأخذ الطفل بعيداً عن الأم وتتعارض مع حاجته للوجود بالقرب منها، ويقوم الطفل بدور نشط في هذا السياق، ويكون التعلق متبادلاً. ويضطرب هذا التوازن عندما يتعرض الطفل لبعض الضغوط، في حالة الشعور بالتهديد عند انفصاله عن الأم، أو عند وجوده في وضع غير مألوف، أو في حالات المرض. عندها يتم تنشيط سلوك التعلق. فالطفل يلوذ بالبكاء والصراخ ويتصرف بطريقة تمكنه من استعادة التجاور مع الحاضن (الأم).

نشر بويلبي بحوثه الأولى المتعلقة بدراسة تجربة الطفولة عند مجموعة من المراهقين الجانحين. لقد كان العامل المشترك الذي يميز طفولة هؤلاء **الحرمان من رعاية الأم**، أو من رعاية أم بديلة مستقرة، فكانوا دوماً يتنقلون من مؤسسة (ملجأ) إلى أخرى، أو من مربية إلى أخرى.

لقد تم تكليف بويلبي من قبل منظمة الصحة العالمية بإعداد تقرير عن حاجات الصغار الذين يعيشون خارج وسطهم الأسري. لقد انتهى بويلبي إلى الفكرة التالية: **من المهم للصحة العقلية أن يتمكن الطفل من إقامة علاقة متميزة، قوية ومستمرة، وبتجربة عميقة وحارة غير متقطعة مع أمه أو مع أم بديلة تحل محل الأم في حال فقدانها** (Bowlby, 1973).

لقد تطورت هذه الفكرة واتسعت أهميتها عندما أخذ بويلبي الاهتمام بالبحوث الإيثولوجية، خصوصاً بحوث كوندراد لورنز وهارلو. أوضح لورنز أن صغار العصافير والثدييات تتعلم خصائص أول مثير يتحرك من حولها (الأم) بعد الخروج من البيضة أو بعد الولادة. هذا السياق من التعلم أصبح يعرف بالانطباع

(Imprinting) للدلالة على سرعة حدوثه وعلى استمراريته. وهكذا أدخل لورنز مفهوماً جديداً هو مفهوم المرحلة الحساسة ليصف الوقت القصير نسبياً الذي يحدث خلاله الانطباع والذي يتراوح بين ٩ و١٧ ساعة بعد الولادة. وغالباً ما تكون الأم هي أول مثير متحرك حول الصغير، في الظروف الطبيعية العادية، طيلة هذه المرحلة الحساسة، حيث يحدث الانطباع الذي تكون له قيمة كبيرة في المحافظة على بقاء الصغار.

حاول بويلبي تطبيق مفهوم المرحلة الحساسة على الطفل البشري عند تفسيره للآثار السلبية التي يعاني منها الطفل عند حرمانه من هذه العلاقات القوية مع الأم، وهذا ما حمل بويلبي على بلورة فرضية **الحرمان من الأم**. ويرى أن هذه المرحلة الحساسة تكون بين الشهر السادس والسنة الثالثة من العمر، يكون الطفل خلالها بحاجة حيوية إلى الرعاية والمحبة من قبل شخص محدد أي الأم أو الأم البديلة التي تحل محل الأم باستمرار.

ويعتقد بويلبي أن **الانفصال بين الطفل والحاضن في أثناء المرحلة الحساسة يترك آثاراً عميقة في النمو العاطفي وفي النمو الاجتماعي**. وتعاقبت البحوث بعد أن نشر بويلبي بحوثه الأولى المتعلقة بالحرمان من الأم وبلور أفكاره حول نظرية التعلق.

المقارنة الإيثولوجية وسلوك التعلق (Ethology and attachment behavior)

عند اختبارهم لفرضية ما، يهتم الإيثولوجيون بشكل خاص بتسجيل مفصل لسلوك الطفل مع الإشارة إلى السلوك المتعلق بهذه الفرضية، وما حدث قبله وبعده. ويتجه الاهتمام بشكل خاص إلى **الاستجابات الغريزية** (مثل التعابير الوجهية والإشارات الجسدية) التي يمكن أن تثير هذا السلوك أو توقفه. ويرى الإيثولوجيون أن الاستجابات الغريزية لها وظيفة مهمة في التفاعل مع نوع محدد من المثيرات المحيطية التي تؤثر في النمو[٢٥]. ويعد بكاء الطفل حديث الولادة مثالاً على هذه الاستجابات المبرمجة بيولوجياً، فالبكاء إشارة تعبر عن الضيق، تستدعي تدخل الأم.

وتتضح الوظيفة التكيفية لهذه الإشارة عندما نعلم أنها تضمن إرضاء

الحاجات الأساسية للصغير عند شعوره بالجوع أو العطش، أو عند حاجته إلى النظافة. كما تضمن هذه الإشارة ما يكفي من **التواصل** مع الآخر (الأم أو الحاضن) لتكوين العلاقات الاجتماعية الأولى (Bowlby, 1973).

تأخذ العلاقة بين الأم والطفل أهمية خاصة في علم النفس (قنطار، ١٩٩٢). وربما كانت البحوث التي تتناول تطور العلاقة بين الأم والطفل محوراً مهماً للتفاعل بين الإيثولوجيا وعلم النفس. فبلورة نظرية بويلبي في التعلق (Bowlby, 1969) كان محاولة توفيقية بين معطيات علم النفس، خصوصاً نظرية التحليل النفسي، وبين نتائج البحوث الإيثولوجية التي عرفت تطوراً سريعاً منذ عدة عقود.

إن النظريات التي سيطرت على علم النفس – إلى وقت قريب – ترى أن التعلق دافع ثانوي ينمو ويتطور على هامش الدوافع الأولية. إذ تتطلب حاجات الطفل الفيزيولوجية من يرضيها، خاصة الحاجة إلى الغذاء والحاجة إلى الحرارة. فالطفل يتعلق بوجه ما (بالأم) لأنه يرضي حاجاته، فتكون الأم من وجهة النظر هذه موضوعاً للتغذية وإرضاء الحاجات، وهكذا ينشأ التعلق على هامش إرضاء هذه الدوافع الأولية. وسميت هذه النظرية من قبل بويلبي بنظرية الدوافع الثانوية.

يرى بويلبي أن هذه النظرية غير قادرة على إيضاح سلوك التعلق بين الأم والطفل، ويقترح فرضية تستند إلى نظرية السلوك الفطري. ويعتبر أن العلاقة بين الأم والطفل هي محصلة لتنشيط جملة من الأنظمة السلوكية التي تهدف إلى المحافظة على إبقاء الطفل بالقرب (Procimity) من الأم. ويبدو ذلك بوضوح خلال السنة الأولى من عمر الطفل عندما يبدأ التنقل في المحيط. ويلاحظ سلوك التعلق عند جميع الأطفال، ويمكن تنشيطه عند مغادرة الأم للطفل أو عند شعور الطفل بالخطر.

يستند بويلبي إلى نتائج البحوث التي تبين أن **التعلق يمكن أن ينمو تجاه أشخاص غير معنيين بالعناية الجسدية للطفل.** يستجيب الصغير بسهولة للمثيرات الاجتماعية، ويمكنه المشاركة في التبادل الاجتماعي مع الكبار، وذلك بمعزل عن الرضاعة أو العناية الجسدية **(Bowlby, 1969)**. كما يستجيب الطفل للمثيرات

الاجتماعية، ويمكن أن يتعلق بأطفال آخرين، ويظهر سخطه واحتجاجه عند غيابهم. ويتوافق سلوك التعلق عند الطفل البشري مع تطور السلوك نفسه عند الثدييات الراقية، وإن كان أكثر بطئاً عند الإنسان. ويلخص بويلبي نتائج هذه البحوث في ثلاث مسائل أساسية:

أولاً – تستند العلاقة بين الطفل والأم إلى **قاعدة بيولوجية غريزية.** فكل أم مهيأة للقيام بدورها في الوقت المناسب، كما أن التعلق حاجة أساسية بالنسبة للطفل تمكنه من النمو نمواً سوياً من النواحي البيولوجية والاجتماعية والعاطفية.

ثانياً – إن **التعلق بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية**، ويستند إلى طبيعة التفاعل بين الطرفين. فإرضاء حاجات الطفل الأساسية مسألة مهمة، إلا أنها غير كافية لنمو التعلق. وغالباً ما يكون إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله الكلامية وغير الكلامية.

ثالثاً – **تتحد العوامل الغريزية وتتفاعل مع عوامل المحيط** أي مع الشروط المادية والثقافية المحيطة بالأم والطفل، فسلوك التعلق هو محصلة للتفاعل المستمر لهذه العوامل مجتمعة.

ويرى بويلبي أن التوازن العقلي للطفل يرتبط بضرورة تمتعه بعلاقة حميمة مع الأم أو مع المرأة التي تحل محلها بشكل دائم. فهذه العلاقة **حاجة أساسية من حاجات النمو** بالنسبة للطفل. ويجب حمايتها وعدم الفصل بين الأم والطفل خصوصاً في ثلاث السنوات الأولى من العمر.

ويجمع علماء النفس على أهمية الاستقرار والاستمرار في علاقة الطفل بالأم، لأن الانقطاع في هذه العلاقة تكون له نتائج خطيرة في نموه الاجتماعي والانفعالي والجسدي. إذ تبين ملاحظة الطفل بعد انفصاله عن الأم إصابته بأعراض الاكتئاب، فينخفض نشاطه الحركي ولا يهتم بما يدور من حوله، ويظهر عدم الرغبة في التفاعل الاجتماعي مع الآخرين.

ويرى بعض الباحثين أن **علاقة الأم بالطفل** تؤثر تأثيراً عميقاً في الطفل، وربما

كانت **أكثر العلاقات تأثيراً على الإطلاق.** وتؤثر طبيعة هذه العلاقة بالخصائص الشخصية المختلفة للطفل.

التعلق في السنوات الأولى

يمتلك الصغير عند معظم الأنواع الأسس الغريزية التي تسهل نمو التعلق، وتطور التفاعل المتبادل بينه وبين الحاضن (الأم في معظم الأحيان). إذ يثير سلوك الصغير حديث الولادة اهتمام الأم واستجاباتها نحوه. فالتفاعل بين الأم وصغيرها يتأثر إلى حد بعيد بالاستجابات الأولية لهذا الأخير (Ainsworth, 1967; Bowlby, 1969).

هذه الأسس الغريزية تجعل كلاً منهما قادراً على إدراك إشارات الآخر. يتوجه الصغير نحو صوت الأم ويدير وجهه باتجاه مصدر الصوت، وذلك قبل تحسن قدرته البصرية، كما يظهر منعكس الابتسام عند الصغير، وترد الأم على ذلك كما لو كانت إشارات عاطفية. وتفسر الأم كل ما يصدر عن الصغير، وتصدر استجابات تحمل الطفل على تكرار هذه الحركات وإصدار إشارات جديدة تؤدي وظيفة تواصلية (قنطار، ١٩٩٢).

وتتحدث الأم إلى طفلها بصوت مرتفع يتصف بالرقة والحنو، وتستخدم كلمات وتعبيرات سهلة (Eibl-Eibesfelt, 1983). وتحاول الأم باستخدام المثيرات الحسية المختلفة (السمعية والبصرية واللمسية) إقامة التبادل البصري مع الصغير وحمله على الابتسام، حيث تعد الأم ابتسامة الطفل بمثابة مكافأة لها ومعزز قوي لسلوكها. ويعد الابتسام من أهم أشكال السلوك عند الجنس البشري نظراً لأهميته في تعزيز الروابط وفي تهدئة التوتر.

كما أن بكاء الصغير هو من السلوكيات التي تؤثر في استجابات الأم. وتختلف هذه الاستجابات والبرهة الزمنية الفاصلة بين بكاء الصغير واستجابة الأم، من أم إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر، وتتراوح بين الاستجابات الهادئة اللطيفة أو استجابات الغضب والعصبية، فالعوامل الثقافية تلعب دوراً مهماً في ذلك.

ويعد التزامن بين العناصر السلوكية على درجة كبيرة من الأهمية في التفاعل

الاجتماعي بين الطفل والأم. فكل فعل أو حركة لأحد الطرفين يقع ضمن جملة مترابطة، تشكل وحدة سلوكية متكاملة ومتوافقة مع أفعال الطرف الآخر. ويتفاوت تأثير العناصر السلوكية في استجابة الطرف الآخر، حيث يكون بعضها محدود التأثير في حين يكون البعض الآخر على درجة كبيرة من التأثير في هذه الاستجابات. فالتقدم التقني في مجال ملاحظة السلوك يسمح بتسجيل الأنشطة السلوكية المختلفة، بتزامنها وتوافقها في وحدة سلوكية متكاملة.

وتستخدم معظم البحوث المتعلقة بالتفاعل بين الطفل والأم **القياس الكمي لعناصر السلوك** المتبادلة كالتكرار والمدة الزمنية. إن مسألة التفاعل بين الأم والطفل على درجة كبيرة من التعقيد مما يحتم إجراء تحليل وصفي كمي دقيق متنوع الوجود لمختلف جوانب السلوك التي تظهر أثناء هذا التفاعل، عند عينة واسعة، بهدف القيام بجرد كامل العناصر السلوكية، وهذا ما يسمى في الإيثولوجيا التقليدية بالإيثوغرام (Ethogram). ويقترح بعض الباحثين بناء مقياس الديادوغرام (Dyadogram)، يتضمن العناصر السلوكية للأم والطفل ويأخذ في الحسبان التنظيم المتبادل للسلوك أثناء تفاعلهما (Collis, 1979).

٢ – ٦ – التفاعل بين الأم والطفل

ينمو التعلق بين الطفل والأم عبر تطور التفاعل بينهما، وعلى الرغم من إلحاح بعض الباحثين على أهمية الأساس البيولوجي الغريزي لسلوك التعلق، أوضحت البحوث الحديثة أهمية المحيط وتأثير سلوك الأم في تطور هذا السلوك. فدرجة «حساسية Sensitivity» الأم للإشارات الصادرة عن غيرها والتفاعل السعيد النشط بين الطرفين يؤدي إلى تطور التعلق الآمن الذي يوفر للطفل الثقة والطمأنينة (De Wolff and Van Ijzendoorn, 1997). وتعني «الحساسية» قدرة الأم على إدراك إشارة الصغير بدقة، والاستجابة لهذه الإشارة في الوقت المناسب. ويعد تكرار التفاعل ونوعيته على درجة كبيرة من الأهمية في تطور التعلق. إضافة إلى ذلك، أشارت بعض البحوث الحديثة إلى أن «الحساسية» ليست العامل المهم الوحيد في تطور التعلق –

خصوصاً بعد إتمام الطفل عامه الأول – فالتبادلية والتزامن في تفاعل الطفل والأم، وكذلك تكرار المثيرات ونوعيتها، والدعم الانفعالي والموقف الإيجابي للأم تكون على درجة مهمة من التأثير في تطور التعلق الآمن (Thompson, 1997; Van den Boom, 1997). فالتعلق الآمن لا يبدو أنه محدد وراثياً، فيجب أن تركز البحوث، في المستقبل، تحديد الأوضاع المحيطة بالتفاعل وعناصره وخصائصه التي تؤدي إلى تطوير التعلق الآمن بين الطفل والأم.

ويأخذ التفاعل بين الأم والطفل أشكالاً متعددة:

٢ – ٦ – ١ – التفاعل اللمسي

يعد التفاعل اللمسي بين الأم والطفل بالغ الأهمية في تطور العلاقة بين الأم والطفل. فمنذ الولادة يجب حماية هذا التفاعل وإتاحة الفرصة للأم وللطفل بالتبادل اللمسي. وتحرص الكثير من دور الولادة الحديثة على التقيد بالتقليد المتضمن وضع الصغير، بعد الولادة مباشرة، على تماس جسدي مع الأم. لقد أكدت بعض البحوث أهمية هذا التواصل اللمسي في المراحل الأولى من حياة الطفل (Klaus and Kenell, 1976). تناولت هذه الدراسة زمرتين من الأمهات، تختلفان في مدة الاتصال بين الأم والمولود الجديد، فالزمرة الأولى كان لها الفرصة الاعتيادية في الاتصال الجسدي اللمسي بالطفل والمتعارف عليها في دور الولادة، في حين أعطيت أمهات الزمرة الثانية فرصة إضافية (١٦ ساعة) من هذا الاتصال خلال الأيام الثلاثة الأولى من عمر الطفل. أظهرت ملاحظة الأمهات بعد شهر من ذلك فروقاً بين الزمرتين، فأبدت أمهات الزمرة الثانية سلوكاً لطيفاً تجاه الطفل وتبادلاً بصرياً أكثر من أمهات الزمرة الأولى.

لقد أشارت الملاحظات اللاحقة في عمر السنة إلى أن سلوك الأم تجاه طفلها يكون أكثر حنواً عليه وأكثر اهتماماً به في الزمرة التي أتيحت لها فرصة الصلات الإضافية مع الطفل بعد الولادة بالمقارنة مع الزمرة العادية.

إن هذه النتائج حملت كلوز وكينيل على الاقتراح بأن الاتصال اللمسي الإضافي بين الأم وطفلها بعد الولادة يمكن أن يؤثر تأثيراً إيجابياً في سلوك الأم، ويمكن استمرار هذا التأثير عدة سنوات فيما بعد.

لقد تأكدت نتائج دراسة كلوز وكينيل فيما يتعلق بأهمية التواصل الحسي المبكر على المدى القريب. إلا أن تأثيرها على المدى البعيد لم يتأكد (Whiten, Eibl-Eibesfeltd, 1983, 1977; Carlsson et al., 1978; 1979). إنه لمن التسرع الشديد القول بالتأثير الدائم للصلات الجسدية الإضافية بعد الولادة في تطور علاقة الطفل بالأم. فعلى الرغم من التأثير المباشر لهذا الاتصال في تنمية الروابط بين الطفل والأم فإن هذا النظام على درجة كبيرة من المرونة، ومن المستبعد أن يتعرض للاضطراب العميق بسبب تجربة عارضة(٢٦).

يتم التواصل اللمسي بين الطفل والأم دون قيود اجتماعية، في معظم الثقافات التي لم تتأثر بالحضارة الغربية. فالطرق التي تتبعها هذه المجتمعات توفر للطفل فرص الاتصال الجسدي دون عقبات. فالطفل يستريح وينام في تواصل جسدي حر مع الأم، كما يوفر الإرضاع الطبيعي الفرص المتكررة لهذا التواصل. إذ يمكن للطفل أن يرضع في أي وقت؛ فهو يتمتع بحرية واسعة في سحب الثدي والإمساك به ومداعبته. وعندما يتعرض الطفل لخطر مفاجئ سرعان ما يبحث عن التلاصق الجسدي بالأم طالباً الحماية والطمأنينة منها.

وتتتغير طبيعة التواصل اللمسي من ثقافة إلى أخرى. ففي المجتمعات الصناعية يتم وضع القيود لتقليل فرص الاتصال اللمسي بين الأم والطفل، خصوصاً عندما يتجاوز الطفل السنة الأولى من العمر، ويصبح بإمكانه الجلوس أو المشي. ولا تسهل الأم في المجتمعات الصناعية هذا النوع من الاتصال، بل تعمل على التقليل منه وقمعه، على عكس ما يلاحظ في المجتمعات العربية التقليدية وفي مجتمعات كثيرة حيث تكون الأم جاهزة في كل وقت للتبادل اللمسي مع الطفل (قنطار، ١٩٩١).

٢ – ٦ – ٢ – التفاعل البصري

يعد التبادل البصري من العناصر المهمة في التفاعل الاجتماعي بين الطفل والأم. إذ تحاول الأم إبقاء الطفل تحت المراقبة، ثم يأخذ التزامن في هذا التبادل أهمية خاصة في تنسيق التبادل بين الأم والصغير. وغالباً ما يتزامن النشاط البصري مع

أشكال أخرى من التفاعل خصوصاً التفاعل الصوتي. بواسطة البصر يتم تنظيم تدخل كل طرف في عملية التفاعل المتبادل، فيأخذ كل دوره استناداً إلى التواصل البصري.

تنظر الأم بشكل تلقائي إلى الطفل أثناء التفاعل واللعب، وتقضي ما يقارب ٧٠٪ من الوقت في النظر إلى طفلها (Stern, 1977) وتكون مدة النظر الواحدة ٢٢ ثانية في المتوسط أثناء اللعب و١٢ ثانية أثناء تغذية الطفل، فهي تقوم بدور من يصغي إلى الطفل في حالة اللعب وتنظر إليه معظم الوقت. في حين تقوم بدور المحدث أثناء تغذيتها الطفل فهي تقلل من المناغاة إذ تتزامن نظراتها وهمساتها نحو الطفل بشكل لا يؤدي إلى عرقلة التغذية، وعلى هذا النحو يتمكن الطفل من اكتساب نظام الاتصال المناسب عند النضج.

وتجدر الإشارة إلى أهمية التعابير الوجهية في التواصل بين الأم والصغير. إذ تعد هذه التعابير قاعدة الحياة الانفعالية (اللذة والكدر والخوف والغضب والفرح والحزن والاشمئزاز أو الرفض). وتتميز هذه التعبيرات الوجهية بدرجة عالية من النضج العصبي – العضلي. وتندمج في بعض الاستجابات لتأخذ دلالة اجتماعية فيما بعد، فهي التواصل مع الآخرين، خصوصاً الأم.

ومنذ الولادة يمكن ملاحظة الفروق الفردية بين الصغار في التعبيرات الوجهية المبكرة. وتؤثر هذه الفروق في سلوك الاتصال عند الطفل، وفي قدرته على التفاعل مع محيطه الاجتماعي. كما يؤثر ذلك في المثيرات الاجتماعية التي سيتلقاها الطفل، إذ إن الإدراك المبكر لشخصيته يتم استناداً إلى خصائص هذه التعبيرات الوجهية.

وربما كان سلوك الابتسام من أهم هذه التعبيرات. ويلاحظ هذا السلوك في الأسبوعين الأولين أثناء النوم فقط، فهو يرتبط بنشاط الدماغ الذاتي ويعكس الإثارات العصبية – الفيزيولوجية ويسمى بالابتسام الانعكاسي(٢٧).

ويظهر سلوك الابتسام المرتبط بحوادث العالم الخارجي في الشهر الثاني من عمر الطفل فالمثيرات الصوتية والبصرية – خصوصاً رؤية الوجه البشري –

والدغدغة تعتبر من المثيرات لهذا السلوك. وهذا التطور المهم يكمن في أن سلوك الابتسام بدأ يأخذ طابعاً اجتماعياً مع الاحتفاظ بخصائصه المورفولوجية الأصلية. ويصبح عنصراً مهماً في التواصل بين الأم والطفل.

٢ – ٦ – ٣ – التفاعل الصوتي

لقد أوضحت البحوث الحديثة أن الطفل شديد الحساسية للأصوات البشرية، خصوصاً صوت الأم، وهو يرد على المثيرات الصوتية للأم غالباً بالمناغاة التي تثير بدورها استجابات مماثلة عند الأم، ويمكن أن يكون ذلك تمهيداً للمحادثة المتبادلة فيما بعد(٢٨).

وتستخدم الأم صوتها بطريقة خاصة أثناء تفاعلها مع الطفل، فهي تضخم بعض المقاطع الصوتية وتكررها، وتتبنى طريقة لغوية خاصة في مخاطبتها للطفل؛ فالطريقة التي تتبعها الأم خاصة، والكبار عامة، في مخاطبة الطفل وتوجيه الكلام إليه، على الرغم من التأكد من أنه لن يفهم، وأنه يستحيل الحصول على جواب، هذه الطريقة تلفت النظر. فالمثيرات الكلامية تشكل جزءاً مهماً من محيط الطفل، يتميز بالثبات والاستقرار ويتناسب مع مختلف مراحل تطور الطفل. وهذه المثيرات الكلامية لا تطلق عشوائياً فهي غالباً على علاقة بما يفعله الطفل وبما يتناسب وقدرته ودرجة يقظته. إذ تقوم الأم بالإصدارات الصوتية بما يتناسب وقدرة الطفل على استقبال هذه المثيرات، ويتخلل ذلك فترات قصيرة من الراحة، وكأن الأم تأخذ في الحسبان طاقة الطفل ومستوى يقظته. كما تتأثر القيمة التي تعطيها الأم لهذا التواصل بدرجة ثقافتها وانتمائها الاجتماعي وبطبيعة عملها اليومي.

يحدث التفاعل الصوتي بين الطفل والأم بتناسق محدد. إذ يأخذ كلاهما دوره في هذا التفاعل تاركاً الفرصة للآخر، وإن تكن الأم هي غالباً التي تأخذ المبادرة في هذا التبادل في المراحل الأولى من نمو الطفل.

وتركز اهتمام بعض الباحثين (Trevarthen, 1980; 1989) في إيجاد العلاقة بين التفاعل غير الكلامي في المراحل الأولى وبين نمو التفاعل الكلامي فيما بعد.

فخصائص الحوار اللغوي موجودة في التفاعل المتبادل بين الأم والطفل قبل بزوغ اللغة عند هذا الأخير (Tronick et al., 1979).

وتشير بعض البحوث إلى أهمية دور الأم في النمو اللغوي – المعرفي للطفل. فالتواصل اللاكلامي (Non verbal communication) بينهما – بواسطة الحركات الجسدية والتعابير الوجهية والإصدارات الصوتية والتقليد والمثيرات اللمسية والشمية – يعتبر نقطة انطلاق مهمة في تطور التواصل الكلامي في مراحل لاحقة، وربما كانت هذه المرحلة من التواصل اللاكلامي في مراحل لاحقة، وربما كانت هذه المرحلة من التواصل اللاكلامي هي التي تمهد لاكتساب اللغة[٢٩]. إن السياق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم والتفاعل بين الأم والطفل يشكل حجر الزاوية في تطور الطفل المعرفي واللغوي وإدراكه المعنى (Trevarthen, 1977).

تقوم الأم، في أثناء السنة الأولى، عبر تفاعلها مع الصغير، بتحضيره ليتمكن من تطوير عناصر أساسية ضرورية لتعلم اللغة. ويأخذ التواصل الكلامي بين الأم والطفل أهمية خاصة بعد إتمامه العام الثاني. إذ تقوم الأم بتصحيح أخطاء الطفل، وتكرار الكلمات أو العبارات التي يصعب عليه النطق بها، وبتشجيع الطفل عند أدائها بطريقة صحيحة (Kontar, 1987). وهكذا يتم اكتساب اللغة في إطار من التفاعل والحوار واللعب، وتصدر الأم المثيرات الصوتية بما يتناسب ومراحل نمو الطفل الذي تتاح له الفرصة كي يعبر عن ذاته، ويظهر كفاءته، ويضع موضع التطبيق، يوماً بعد يوم، ما اكتسبه عبر تفاعله مع الأم (قنطار، ٢٠٠١).

٢ – ٦ – ٤ – التفاعل الشمّي

قام ماكفارلاين (Mac Farlane, 1975) بدراسة تأثير الرائحة في التفاعل بين الأم والطفل عندما وضع موضع التنفيذ سلسلة من التجارب. تتضمن إحدى هذه التجارب وضع قطعتين من القماش في محاذاة رأس الطفل حديث الولادة[٣٠]، تحمل إحداهما رائحة الأم (رائحة إفرازات الثدي والغدد المجاورة له)، بينما تحمل الثانية رائحة محايدة أو رائحة أم أخرى. لقد أظهر الصغير استجابات مختلفة نحو المثير

الذي يحمل رائحة الأم. إنه يتجه بحركاته إلى مصدر رائحة الأم دون غيرها. لقد اعتبر هذا الباحث حركة الرأس باتجاه مصدر الرائحة مؤشراً لتفضيل الطفل لرائحة ثدي الأم وتمييزه. أشارت نتائج هذه الدراسة إلى أن الصغير يميز رائحة الأم اعتباراً من اليوم السادس بعد الولادة، ويصبح تفضيله لرائحة الأم أكثر وضوحاً في اليوم الثامن عشر.

لقد تأكدت هذه النتائج بعد البحوث التي قام بها بنواشال (Schaal, 1984, 1988). فقد أشارت هذه البحوث إلى أن رائحة الأم تلعب دوراً مهدئاً للطفل عندما يكون في حالة من التوتر أو البكاء.

إن تمييز الطفل لرائحة الأم في مرحلة مبكرة يحمل على الافتراض بأن الاتصال الشمي يلعب دوراً مهماً في تطور التفاعل بين الأم والطفل. فظهور علامات الانبساط والرضى عند الطفل لدى تعرضه لرائحة الأم، يؤثر في استجابات الحنو والعطف التي تظهرها الأم بدورها نحوه.

وفي دراسات أخرى (Schaal and Kontar, 1985; 1998) اتضح أن الأم أيضاً يمكنها تعرف رائحة طفلها في مرحلة مبكرة بعد الولادة.

كما أن الطفل يستمر في تعرف رائحة الأم في المراحل النمائية اللاحقة (من ٤-٥ سنوات).

وتجدر الإشارة إلى أن تعرف رائحة مألوفة يبعث على الشعور بالأمن والطمأنينة عند الصغار، وكذلك عند البالغين (Halpin, 1986) خصوصاً عندما يتعلق الأمر برائحة الزوج أو الزوجة. يبدو أن حاسة الشم لها وظيفة تكيفية في ميادين متعددة، خصوصاً في التعلق المبكر بين الأم والطفل، وفي التفاعل الاجتماعي، وفي الحياة الانفعالية.

وتؤثر الرائحة في سياق التعلق الذي يعتمد في تطوره على قدرة الصغير على تمييز الأم الحاضنة عن غيرها من الأشخاص، فهو في أسابيعه الأولى يميز خصائص الرائحة الصادرة عن الأم. وهذا ما يؤثر مباشرة في التنظيم السلوكي والفيزيولوجي

عند الطفل، فقد يؤثر الإحساس بهذه الرائحة في البكاء، وقد يعني بداية الرضاعة، كما تؤثر الرائحة المعتادة في تهدئة الصغير وتحوله من حالة اليقظة إلى النوم.

٢ – ٧ – خصائص التعلق وتأثيرها في نمو الطفل

أصبح من الواضح أن خصائص التعلق تؤثر تأثيراً عميقاً في سلوك الصغير ونموه وتطوره، خصوصاً من الناحيتين الاجتماعية والانفعالية، فالأم المنتبهة لإشارات الصغير والملبية لحاجاته، والحاضرة بأحاسيسها وعواطفها في استجاباتها للصغير تهيئ له الشروط المناسبة لتنمية سلوك التعلق الآمن (Secure Attachment)، وتعزز لديه الثقة بالكبار، والطفل يعمم هذه الثقة في علاقاته مع الآخرين. أما في حالة اضطراب التواصل بين الأم والطفل، لا تكترث الأم بإشارات الصغير، ولا تنتبه لما يصدر عنه، ولا تظهر استجاباتها نحوه في الوقت المناسب. عندها يمكن أن يتسم التعلق بينهما بالقلق والغموض، ويفقد الطفل ثقته في الكبار ويظهر الخوف عندما يرى شخصاً غريباً.

وتطورت في العقود الأخيرة المناقشات بين أصحاب هذه النظرية لمحاولة استكشاف وتفهم خصائص التعلق المبكر (الآمن أو غير الآمن) وعلاقة ذلك بالنمو الانفعالي والمعرفي عند الطفل. لقد كان لبحوث انسوورث (Mary Ainsworth, 1967) وزملائها دور مهم في تطور الحوار حول أهمية الجوانب المعرفية والانفعالية والسلوكية لهذه العلاقة المبكرة التي تربط الصغير بالحاضن (الأم).

لقد أدى تطور نظرية التعلق إلى توجيه الاهتمام نحو العلاقات المبكرة وتأثيرها على المدى البعيد في مستقبل النمو الاجتماعي والانفعالي والمعرفي عند الطفل[٣١].

وتجدر الإشارة إلى أن روابط التعلق ليست مسألة نمائية يمكن للطفل إنجازها في المراحل المبكرة ويتركها خلفه فيما بعد. فالصغار، وبعد ذلك الكبار، يوازنون بين البقاء على صلات قوية مع الآخرين وبين الاستقلالية والاعتماد على الذات في كل مرحلة من مراحل النمو التي يواجهونها.

كما أوضحت بعض البحوث المتعلقة بملاحظة الأطفال مع أقران اللعب أن درجة الأمن والطمأنينة في العلاقة مع الأم، تؤثر في خصائص التفاعل مع الأقران، فدخول الطفل في علاقات اجتماعية وفي تفاعل مع الآخرين، يرتبط بدرجة شعوره بالأمن والطمأنينة في علاقته مع الأم (Easterbrooks and Lamb, 1979; Thompson and Lamb, 1984).

وتوضح بعض البحوث أهمية دور الأم في النمو اللغوي – المعرفي للطفل، إذ إن التفاعل بين الأم والطفل يكون نقطة انطلاق مهمة في تطور التواصل اللاكلامي بينهما. وتمهد هذه المرحلة لتعلم اللغة فيما بعد. ويعد السياق الإبداعي الذي يؤدي إلى التفاهم بين الأم والطفل حجر الزاوية في تطور الطفل اللغوي والمعرفي.

وعلى الرغم من انتقاد الإيثولوجيين لأصحاب نظريات التعلم لتجاهلهم الأسس البيولوجية للسلوك الإنساني فهم، بدورهم، أغفلوا أن النمو لن يتقدم بعيداً بمعزل عن التعلم. فبكاء الصغير يمكن أن يكون إشارة غريزية تسهم في تطوير التواصل الذي ينبثق عنه التعلق العاطفي. إلا أن هذا التعلق لا يحدث بصورة آلية، إذ يتوجب على الصغير أن يتعلم أولاً تمييز الوجه المألوف، دون غيره، قبل أن يظهر أي شكل من أشكال التعلق مع الحاضن. ويكمن معنى التكيف لهذا التمييز المتعلم للوجه المألوف، عندما يعود بنا إلى مراحل التطور التاريخية، عندما كان البشر يتنقلون على شكل قطعان ومجموعات تعيش في الطبيعة، كان هذا التعلم حينذاك مسألة حياة أو موت بالنسبة للصغير، أي أن يتعلم التعلق بحاضن مألوف وأن يخاف من الغرباء. فعدم البكاء أمام وجه غريب يجعل من الطفل فريسة سهلة لبعض الأنواع المفترسة.

أما إذا افترضنا أن الحاضن لا يستجيب لبكاء الصغير، أو يتجاهله غالباً، فإن هذا البكاء لا يؤدي إلى التواصل مع الحاضن. فمن المحتمل أن مثل هذا الصغير لا يتمكن من إقامة علاقات تعلق عاطفي، ويبقى عديم الاستجابة العاطفية نحو الآخرين طيلة الحياة. فهذا الطفل تعلم من التجربة المبكرة أنه يتعذر التواصل مع الحاضن الذي لا يمكن الثقة به. وتكون النتيجة أن الصغير يصبح مضطرباً وقلقاً فيما يخص موقفه من الحاضن، ثم يعمم هذا الشعور في علاقاته مع الآخرين (Ainsworth, 1973).

٣ – التفاعل بين الطفل والأتراب

لقد أغفلت علاقة الطفل بأترابه لمدة طويلة، ولم تبدأ دراسة هذه العلاقة بشكل منهجي إلا منذ عدة عقود. لقد كانت الأدبيات التي تعالج التطور الاجتماعي للطفل من إنجاز المنظرين الذين لم يسبق لهم ملاحظة الصغير أثناء تفاعله مع الأقران (Schaffer, 1984). ويعود النقص في هذه الدراسات إلى سببين أساسيين: أ – سيطرة نظرية التحليل النفسي التي تلح على أسبقية علاقة الأم بالطفل وتحديدها للعلاقات الأخرى بين الطفل والآخرين. ب – تأثير نظرية بياجيه التي تفترض أن التمركز حول الذات عند الطفل يجعل من الصعوبة بمكان توجيه النشاط الاجتماعي نحو الأقران، كما ركز بياجيه الاهتمام في التغيير التدريجي للبنية العقلية للطفل عبر تفاعله مع المحيط، إلا أن أطفال بياجيه كانوا محاطين بأشياء جامدة فقط فلم يحدث وأن تفاعل هؤلاء مع الآخرين (Schaffer, 1984؛ قنطار، ١٩٩٨).

لقد أسهمت الإيثولوجيا مساهمة خلاقة في هذا الميدان عندما انطلقت البحوث الميدانية التي تناولت السلوك الاجتماعي للطفل مع الأقران في تعبيره العفوي، وفي محيطه المألوف في الروضة (Blurton-Jones, 196, 1972; McGraw, 1970, 1972).

وتلاحقت بعد ذلك البحوث والدراسات التي تتناول سلوك الطفل والأقران في مختلف المراحل النمائية (Ross and Goldman, 1977). ويرى العديد من الباحثين أن الطفل في السنة الثانية من العمر يشارك في تفاعل معقد مع أترابه، ويتميز هذا التفاعل بالمودة والإيجابية (Lweis and Rosenblum, 1975; Mueller and Brenner, 1977; Kontar F., 19923; Kontar F. et Soussignan R, 1987).

وفي ملاحظات أخرى تبين أن التفاعل الاجتماعي بين الأطفال يتميز بالتنوع والثراء منذ بداية الحياة. وتتغير صيغة هذا التفاعل ووظيفته أثناء النمو. فالطفل منذ عامه الأول يأخذ المبادرة لإقامة التفاعل الاجتماعي، وفي الأشهر الأولى من عامه الثاني يبدأ التبادل مع الأتراب، ويكون هذا التبادل قصيراً خاطفاً، وفي نهاية العام الثاني يظهر الطفل اهتماماً حيوياً بالأقران (Howes, 1980). ويعبر عن هذا الاهتمام

بالاقتراب من الأقران وتقليدهم وإظهار سلوك الهدية والعطاء نحوهم، ويلاحظ التنسيق والتناغم في سلوك الأطفال عند مشاركتهم في تفاعل يتضمن سلسلة سلوكية معقدة.

وأشارت بعض الدراسات إلى أهمية التجربة المبكرة مع الأقران في نمو الطفل الاجتماعي؛ فالتجربة مع الأقران تغني الموسوعة السلوكية للطفل وتؤثر تأثيراً إيجابياً في تفاعله مع الأهل (Vandell, 1979). ويرى باحث آخر أن العلاقة مع الأقران لها أهمية أساسية في تطور السلوك الاجتماعي والجنسي في مراحل لاحقة (Hartup, 1976).

ويبدو أن التفاعل الاجتماعي عند الطفل يتأثر بخصائص رفيق اللعب، وبدرجة تعود أحدهما على الآخر. فالتفاعل مع قرين معروف يكون أكثر تعقيداً وأكثر تكراراً بالمقارنة بالتفاعل مع قرين غير معروف (Doyle et al., 1980). فالتجربة مع الأقران تحسن من فعالية سلوك الاتصال، نتيجة المشاركة المتنوعة معهم، عندما تتاح للطفل الفرصة لصياغة أفعاله، وتنفيذها أثناء التفاعل حيث يؤثر الواحد في الآخر في تسريع النمو الاجتماعي (Kontar F., 1992). وتوضح دراسة حديثة (Fonzi et al., 1997) أهمية علاقات الصداقة بين الأطفال وتأثيرها في خصائص التفاعل الثنائي فيما بينهم. فالصغار الأصدقاء هم أكثر إنتاجاً للمقترحات المتعلقة باللعب والنشاط مقارنة بغير الأصدقاء وأكثر حواراً وميلاً إلى إيجاد الحلول التوفيقية فيما بينهم، وأكثر التزاماً بقواعد اللعب.

وفي ملاحظات ستراير وترادل (Strayer et Trudel, 1985) حاولا دراسة النشاطات المختلفة التي تؤدي إلى تماسك أفراد الزمرة من الأطفال في المرحلة قبل المدرسية. وأمكن التفريق بين نوعين من السلوك: السلوك الذي يؤدي إلى تباعد الأقران وتفكك الزمرة، والسلوك الذي يساهم في استمرار التفاعل الاجتماعي، ويعزز من تلاحم الزمرة، مما يضمن الثبات والاستقرار للوحدة الاجتماعية (Kontar et Soussignan R, 1987). وحاول بعض الباحثين معرفة العناصر السلوكية التي تجعل من بعض الأطفال، ضمن المجموعة، هدفاً للسلوك الودي الذي يظهره الأتراب

نحوهم. تقدم بعض الباحثين بفرضيات لتفسير ذلك، فمنهم من يرى أن سلوك الابتسام وسلوك الهدية وانتظام إيقاع النشاط الحركي عند الطفل يجعل منه محور النشاط والتفاعل، وموضع جذب للأتراب (Montagner, 1978). في حين يرى آخرون في سلوك التقليد سلوكاً مهماً في التفاعل والتأثير في توجيه نشاط المجموعة (Nadel, 1986). وفي أثناء السنة الرابعة من العمر يتأكد التفاعل الكلامي يوماً بعد يوم، ليصبح الصيغة السائدة في التواصل، وتتراجع بعد هذا العمر، تدريجياً، أهمية سلوك التقليد المباشر بين الأتراب (Baudonniere, 1988).

لقد بينت دراسة ستراير ورفاقه (Strayer et al., 1987) الارتفاع المطرد في السلوك الودي غير العدائي عند الأطفال بين السنة الأولى والسنة الخامسة من العمر. فالتفاعل الإيجابي يزداد نتيجة تعود الأطفال بعضهم بعضاً، واستقرار الروابط فيما بينهم، وازدياد خبراتهم في التفاعل مع الأقران كلما ازدادت المدة الزمنية التي يقضيها الأطفال في المجموعة. وهذا يؤدي إلى تغير في طبيعة التفاعل العدائي وفي تكراره. إذ يتجه هذا النوع من التفاعل إلى الانخفاض[٣٢] ، [٣٣].

إن التفاعل مع الأتراب يشكل فرصة فريدة، لها خصائصها المميزة. إذ يتعرض الطفل لنمط من المثيرات يختلف عن تلك التي يتعرض لها عند تفاعله مع البالغين، فتكيف الطفل أثناء تفاعله مع الأقران يمكنه من إغناء تجربته واكتساب الكثير من أشكال السلوك والآليات التي تمكنه من التوافق مع الظروف الاجتماعية المختلفة. وهو يقوم مع الأقران بأدوار متعددة ومعقدة، يساعده ذلك في طريقة تكيفه مع وسطه الاجتماعي.

ويتمتع الأطفال في الزمر المستقرة بتطوير آلية لمواجهة الأزمات التي تنشأ من حين إلى آخر – كالتهديد أو العدوان – إذ تبرز أهمية احتواء التفاعل العدائي، وتطور التفاعل الودي الذي سيؤدي إلى تركيز السلطة في المجموعة وتزايد قدرتها على حل الأزمات التي تعترض طريقها، وعدم السماح للتفاعل العدائي بالتطور أو بالاستمرار[٣٤].

تأخذ الخبرات مع الأقران أهمية خاصة في نمو الطفل من مختلف الجوانب الاجتماعية والمعرفية والانفعالية واللغوية؛ لأن الطفل في تفاعله مع الأقران يحاول استكشاف المحيط، واكتشاف أو إبداع ألعاب جديدة متنوعة، ويقوم بأدوار معقدة ومختلفة، مما يؤثر تأثيراً إيجابياً في نموه الاجتماعي والمعرفي. كما يتمكن الطفل في تفاعله مع الأقران من إثراء محصوله اللغوي، بتعلم كلمات وجمل وتعبيرات جديدة. ويضع موضع التطبيق ما تعلمه في ميدان التواصل اللغوي. فالعلاقات المتبادلة مع الأقران تمكن الطفل من تنمية قدراته في التواصل وفي التكيف الاجتماعي مع أقران دائمين.

٤ – الفروق بين الجنسين

يرى الكثير من الباحثين أن الفروق بين الجنسين تعود – إلى حد كبير – إلى الإرث البيولوجي الثقافي للنوع البشري. فالتطور التاريخي وتقسيم العمل وتوزيع الأدوار بين الرجل والمرأة يفسر الفروق بين الجنسين. ومن المهام التي أنيطت بالذكور البالغين الصيد والبحث عن الغذاء والدفاع عن المجموعة وطرد العدو، في حين تقوم الإناث برعاية الصغار والاهتمام بشؤونهم. لقد ترك هذا التقسيم للأدوار آثاره في الكثير من الفروق بين الجنسين. وتميل المجتمعات الحديثة إلى تقليص الهوة التي تفصل بين الجنسين في مختلف المجالات، وتكافح الإنسانية من أجل تحقيق العدل والمساواة ورفع الظلم الذي لحق بالمرأة عبر المراحل التاريخية المختلفة. إن ترسيخ المساواة وعدم التمييز ضد النساء في القانون الدولي وفي شرعة الأمم المتحدة هو جزء من المنجزات التي حققتها البشرية والتي تعود بالخير على المرأة وعلى الرجل وعلى المجتمع كله. ولا بد من إلقاء الضوء على الآلية التي توضح هذه الفروق بين الجنسين بهدف تفهمها وفهمها وليس بهدف تفضيل بعض الخصائص عند جنس دون آخر.

٤ – ١ – العوامل التي تؤثر في الفروق الجنسية

لقد سيطر على علم النفس اتجاهان أساسيان لتفسير الفروق بين الجنسين:

١ – تتحدد الفروق بين الذكور والإناث في إطار **التنشئة الاجتماعية** وتبرز أهمية موقف المجتمع، خصوصاً الأسرة والمدرسة والأقران، وأهمية الإطار الاجتماعي والثقافي في التنميط الجنسي عبر تشجيع السلوك المناسب لجنس صاحبه، وعدم تشجيع السلوك غير المناسب. ويتم تعزيز السلوك «الأنثوي» المرغوب اجتماعياً وتشجيعه عند البنت في حين تحصل على نتائج سلبية إذا أظهرت سلوكاً أكثر ملاءمة للذكور. كما يتم، بنفس الطريقة، تعزيز السلوك «الذكوري» المرغوب عند الذكر أو عدم تعزيزه عندما لا يكون مرغوباً (Maccoby, 2000). استناداً إلى وجهة النظر هذه تكون الفروق بين الجنسين نتيجة لنفس السياق الذي يبدأ منذ الولادة، فإذا كان يجب على الولد، لكي يصبح ذكراً، أن يتعلم عدم البكاء فسوف يكون أكثر عرضة للضغوط الاجتماعية من البنت عندما يظهر هذا السلوك. إضافة إلى هذا النوع من التعلم، هناك التعلم بالملاحظة الذي يؤثر في سلوك المراهق (التقليد والموضة).

٢ – يؤثر **النمو المعرفي** في الفروق بين الجنسين، ومن وجهة النظر هذه لا ينظر إلى الطفل على أنه متلقٍّ لضغوط التنشئة الاجتماعية بل هو ينتخب المعلومات المناسبة ويستخدمها لنموه وأهدافه. فالطفل ينظم، بواسطة بنيته المعرفية، المعلومات المتعلقة بجنسه في مجموعة من التوقعات توجه إدراكه الاجتماعي وتنظيمه للمعلومات المتعلقة بخصائص الجنسين والمعايير المتعلقة بسلوك كل منهما (Bussey & Bandura, 1999).

وتجدر الإشارة إلى أهمية المقاربة الإيثولوجية والسايكوبيولوجية في تفسير الفروق الجنسية، إذ بدأت نتائج البحوث في هذه الميادين بالتفاعل مع معطيات علم النفس تؤثر فيها وتتأثر بها.

أ – المقاربة الإيثولوجية The ethological perspective

عند دراسة الفرد ينظر الإيثولوجي إلى السلوك النوعي وخصائصه، وإلى الظروف الخاصة التي ظهرت من خلالها الفروق الجنسية. اهتم الإيثولوجيون بدراسة التشابه بين الطفل البشري وبين غيره من صغار الأنواع الأخرى، وتم تفسير هذا التشابه على أنه إشارة إلى تطور وراثي يشكل القاعدة لبعض عناصر

السلوك الإنساني. ويبقى التاريخ التطوري للنمو الإنساني مسألة على درجة كبيرة من الأهمية حتى وقتنا الحاضر. ويهتم العلماء في هذا الميدان بالمعنى التكيفي الذي يفيده هذا السلوك أو ذاك الذي سبق أن تطور على هذا النحو. ومن المنظور التطوري، في أي اتجاه يأخذ النمو عند كلا الجنسين أهميته؟ في الواقع يظهر التكيف التطوري عند كلا الجنسين، مما يجعل التزاوج ممكناً عند البلوغ، ثم التكاثر والمحافظة على بقاء النوع. ولكن ما هو دور التطور في الفروق الجنسية التي تظهر في الطفولة قبل التزاوج وقبل نشاط رعاية الصغار؟ يرى بعض الباحثين أن هذه الفروق هي انعكاس للاستعداد لتحضير الطفل للأدوار الجنسية الإنجابية في مرحلة البلوغ (Geary and Bjorklund, 2000). إن ميل صغار الأطفال الذكور إلى التنافس والسيطرة والعراك ينظر إليها على أنها تحضير الذكر للمنافسة في مرحلة البلوغ في حين ينظر إلى ميل صغار الإناث إلى الاستجابة والتعاون مع أقرانها الإناث على أنه تحضير لها للمشاركة في القاعدة الاجتماعية التي ترعى الصغار.

هل يمكن للفروق الجنسية أثناء الطفولة أن تفيد في التكيف بعد البلوغ؟ يرى بعض العلماء أن التنميط الجنسي في أثناء الطفولة يهدف إلى تنظيم التكاثر والتزاوج، فالفروق الجنسية تؤثر في تسهيل التقارب بين الجنسين عند البلوغ ثم التزاوج والإنجاب. لأن الإنسان – استناداً إلى وجهة النظر هذه – لديه استعداد لتجنب الاهتمام الجنسي مع أي شخص تربطه به روابط قوية منذ الطفولة كالأخوة والأخوات والمحرمات من المقربين والمقربات.

إلا أنه من الصعب القبول بهذه الفكرة، فلا يقتصر دور الفروق الجنسية على وظيفة التكاثر وإنما يتعداها إلى وظائف حيوية بالنسبة لبقاء الفرد. فتعاون الذكور عند الإنسان القديم وتجمعهم وتحالفهم في الصيد وفي الدفاع عن المجموعة لا يهدف مباشرة إلى النجاح في التكاثر بقدر ما يهدف إلى بقاء المجموعة (Maccoby, 2000).

ب – المقاربة السيكبيولوجية The psychobilogical perspective

تنظر البحوث السيكوبيولوجية الحديثة إلى العلاقة بين العوامل الوراثية والعوامل البيئية على أنها علاقة تبادلية في اتجاهين، ويتعذر فهم مكوناتها عند

الفصل فيما بينها. وبدأت البحوث الحديثة بردم الهوة الفاصلة بين الجينات والنتيجة السلوكية عندما أوضحت التأثير المزدوج للبيئة وخلفة من الجينات في إطلاق سباق بيوكيميائي يمكنه التأثير في النتيجة السلوكية.

إن تعريض قردة الريسيس إلى حرمان من التفاعل مع أقرانها في الصغر يؤدي إلى ازدياد السلوك العدواني عند الذكور، وازدياد سلوك الخضوع والانصياع عند الإناث. وعندما تعرضت الأنثى لزيادة في هرمونات الأندروجين قبل الولادة، أظهرت فيما بعد مستوى مرتفعاً من لعب المعركة، ولكن لم يحدث مثل هذا التأثير بالنسبة للذكور. توضح هذه النتائج أهمية العوامل البيولوجية (الوراثية) وشروط البيئة المحيطة بالعضوية النامية، ولكن بشكل مختلف عند كلا الجنسين.

من المؤكد أن الأمر مختلف بالنسبة للطفل البشري إلا أن المقارنة مفيدة جداً في هذا الميدان. فالفروق في الاستعدادات بين الصبيان والبنات تعتمد – إلى حد كبير – على طبيعة الشروط الاجتماعية التي يوفرها الكبار أو الأقران في أثناء التفاعل معهم. إذ تختلف المجتمعات في مدى سماحها للطفل من كل جنس في التفاعل مع الكبار أو مع الأقران من نفس الجنس أو من جنس مختلف. وهذا ما يفسر تطور الفروق الفردية بين الجنسين في مختلف مراحل النمو.

٥ – السلوك العدواني

ربما كان سلوك العدوان من أهم نقاط التقاطع بين الإيثولوجيا وعلم النفس. لقد جاءت نظرية لورنز في العدوان لتدعم وجهة نظر فرويد حول هذا السلوك. يقوم تصور لورنز للعدوان على التسليم بوجود دافع عدواني يأخذ شكل طاقة داخلية محددة تتراكم تدريجياً عند الفرد وتظهر بالضرورة بشكل أو بآخر. ويكفي أن يتوافر «المثير» ولو كان ضئيلاً لكي تنفلت هذه الطاقة العدوانية المتراكمة كالسيل الجارف. هذه الكمية المؤذية من العدوانية تشكل جزءاً وراثياً يخترق الإنسان حتى الأعماق. ويرى لورنز خطورة ذلك على البشر حيث يقف الإنسان المعاصر وفي يده القنبلة

الهيدروجينية، نتاج ذكائه، وفي قلبه غريزة العدوانية الموروثة من أجداده الأوائل، فعقله لا يستطيع السيطرة على هذه الغريزة (Lorenz, 1973).

يعتبر مفهوم «الغريزة العدوانية» من المفاهيم المركزية في نظرية لورنز (Karli, 1987). إلا أنه لا يميز هذا السلوك الغريزي القابل للملاحظة من الطاقة الداخلية التي تجد تعبيرها نحو الخارج عبر هذا السلوك. وهو يشير إلى الخصائص الغريزية المبرمجة وراثياً لصيغة حركية قد يزيد تعقيدها أو ينقص، مع نشاط عصبي تلقائي لتنفيذ هذا النشاط الحركي (الفعل العدواني). ويرى لورنز أن الدافع العدواني ينبثق تلقائياً من قلب الإنسان، وهذه التلقائية تجعله خطراً، فلو كان هذا الدافع ردة فعل نحو جملة من العوامل الخارجية، كما يزعم بعض علماء النفس وعلماء الاجتماع، فالإنسانية لن تكون في خطر كما هي عليه الآن. فالعوامل التي تثير ردود الفعل هذه يمكن دراستها واستبعادها مع آمال كبيرة في النجاح. فالفكرة القائلة إن هذا السلوك هو ردة فعل هي فكرة خاطئة من وجهة نظر لورنز. يبدو إذن أن غريزة العدوان ترتبط، بالنسبة للورنز، ليس فقط بوجود السلوك العدواني، وإنما ترتبط أيضاً بطاقة داخلية خاصة يجب تفريغها[٣٥].

وإذا اعتبرنا أن سياق الانتخاب الطبيعي يمكن أن يؤثر في بعض أشكال العدوان الذي يضمن تحقيق بعض الوظائف، ضمن ظروف محددة لمن يظهره، فلا يمكن تصور أن التطور يمكن أن يؤدي إلى ولادة غريزة عدوانية إذ إن هذا السلوك يمكن التعبير عنه في ظروف مختلفة لتحقيق بعض الوظائف.

٥ – ١ – مفهوم الطقوس (Ritualisation) في العدوان

كما أن لورنز (Lorenz) سلم بوجود غريزة العدوان، عند الحيوان وعند الإنسان، موجهة ضد أبناء جنسه وهو يدرك خطر هذه الغريزة، فكان من الضروري أن يسلم بتطور آلية فيزيولوجية من السلوك وظيفتها منع العدوان من الذهاب بعيداً إلى جرح أو قتل الآخر. وهذا ما يسميه لورنز بالمتنفس الدقيق الذي يوجه العدوان في اتجاهات غير مؤدية وغير هجومية، أي إعادة توجيه العدوان بتأثير سياق من

الطقوس. ويعود لهذه الحركات (الطقوس) المحددة في سياق غريزي أن تعمل على كف العدوان ومنعه من إلحاق الأذى بالنوع. إن غريزة الطقوس ولدت من رحم غريزة العدوان لتخفف من آثاره. إلا أن هذه المسلمة كانت موضع انتقاد لنظرية لورنز من قبل بعض العلماء(٣٦).

ويعتقد بعض الإيثولوجيين أن معرفة السلوك العدواني وفهمنا العميق لهذا السلوك يشكل الخطوة الأولى لتجنب العدوان (Eibl-Eibesfeldt, 1979).

يرى لورنز في العدوان قدراً موروثاً عن الآباء والأجداد وجزءاً من الغرائز البيولوجية التي لا يتمكن العقل من السيطرة عليها. وإضافة إلى سياق الطقوس، يسلم لورنز بوجود آلية أخرى تؤثر في إعادة توجيه العدوان، ويوضح كيف عمل التطور على تحويل السلوك، عبر وسائل بسيطة من التوجيه الطقوسي، المدفوع بغريزة العدوان نحو سلوك من التهدئة ومن ثم التحول نحو علاقات من المحبة بين المشاركين. يتم تحويل العدوان عبر التفريق بين الصديق والأجنبي وظهور الصلات الشخصية بين فردين والتي تشكل آلية سلوكية تهدئ العدوان وتعمل على كفه.

تتفق نظرة لورنز للسلوك العدواني مع نظرية فرويد الذي يرى في هذا السلوك التعبير عن غريزة الموت؛ إذ يتحدث فرويد عن طاقة غريزية، كغيرها من أشكال الطاقة، التي تتحرك عبر المسالك العصبية. فالفكرة القائلة إن العدوان هو صفة فطرية من صفات البشر هي فكرة مشتركة بين فرويد ولورنز، وتخلص إلى القول إن الجهود التي تبذل لمنع الدوافع العدوانية من الظهور غير مجدية، وإن كان فرويد أشار إلى أهمية التفاعل بين الطفل وأسرته في تعزيز الكوابح التي تؤثر في كف العدوان(٣٧).

إلا أن تطور البحوث الحديثة في ميدان البيولوجيا العصبية لا يؤيد هذه النظريات التي ترى في السلوك العدواني غريزة داخلية وتراكماً للطاقة، يحتاج الفرد إلى إفراغها. كما أن النظر إلى سلوك العدوان على أنه سلوك تستثيره الظروف الخارجية فيه تبسيط مفرط. واستناداً إلى هذا التصور الذي يرى الشر في الخارج

وهو الذي يستثير الملاك الذي يكمن فينا ليتحول إلى حيوان، فهو كسابقه يميل إلى التبسيط بالانتقال إلى النقيض، فيرى الشر في الداخل يسكننا فالحيوان في الإنسان(٣٨).

ويوضح كارلي (Karli)ذلك بالمثال المبسط التالي: عندما نقرر، زوجتي وأنا مشاهدة التلفاز، القناة الأولى تبث بطولة العالم في كرة القدم، في حين تقدم القناة الثانية فيلماً رائعاً. أنا أفضّل مشاهدة كرة القدم، في حين تفضل زوجتي متابعة الفيلم. فيما يتعلق بسلوكي في هذا الموقف، يمكن أن أفكر في حلين اثنين: ١ – رغبتي العميقة في إسعاد زوجتي ومشاهدة الفيلم معها. ٢ – إلغاء رغبة زوجتي ومتابعة كرة القدم. إن تفسير السلوك في الحالة الأولى يقود إلى القول إنني عبر سياق السمو بالعدوانية نحو المحبة لا يكفي. كما أن تأكيد الخصائص العدائية في الموقف، لا توضح لماذا تكون نفس الحالة مثيرة للعدوان في موقف دون غيره. في الواقع، في الحالة الأولى كما في الثانية يكون السلوك الذي أظهره وسيلة للتعبير وللفعل، ويعمل الموقف على كشف السلوك. ففي هذه الحالة يكشف سلوكي بعض خصائص شخصيتي، وطبيعة علاقتي ببعض الأشياء (التلفاز وكرة القدم) وماهية علاقاتي بالآخر، (في هذا الموقف مع زوجتي).

يلح كارلي على ضرورة التساؤل حول الدوافع التي تقود الفرد لمواجهة وضع محدد واستخدام سلوك ما. وهذا يعني القيام بمراجعة شاملة لمختلف العوامل التي تساهم في تحديد احتمال تبني هذه الاستراتيجية أو تلك، وتحليل الآلية الدماغية التي يتم عبرها تأثير هذه العوامل المتعددة والمختلفة، فهي تتعلق بنفس الوقت بشخصية محددة غنية في تجربتها، كما تتعلق بوضع يشكل جزءاً من إطار اجتماعي – ثقافي، وبعلاقة فردية تبلورت بين شخصين، علاقة يعبر السلوك عنها أو يميل إلى المحافظة عليها أو إلى تعديلها. فطريقة عمل الدماغ تؤثر بدورها في كيفية تمثيل التجربة المعاشة في الدماغ، تؤثر بطريقة تقويم الدماغ لمعاني موقف ما استناداً إلى هذا التمثيل، كما تؤثر في الطريقة التي يختارها والاستراتيجية التي يرى أنها مناسبة.

وهذا يعني أن واقع العدوان معقد وتحليله يتطلب بالضرورة تعاوناً بين ميادين علمية متعددة لنصل إلى نظرية مفتوحة متعددة الأبعاد ومعقدة لفهم السلوك الإنساني[٣٩].

وفي ميدان الجريمة، يمكن أن نعتبر أن خرق القانون هو وسيلة من وسائل إرضاء رغبة ملحة، أو لحل مشكلة أو لتحقيق حاجة. وإذا كانت نسبة الجريمة تتغير عبر الزمان وعبر المكان، ذلك لأن العوامل التي تساهم في تحديد هذا النوع أو ذاك من السلوك متعددة جداً. فالعوامل البيولوجية الداخلية (غريزة العدوان) لا تفسر الجريمة، وكذلك القول بتأثير عدوانية المجتمع ففي ذلك اختزال يحجب عنا إمكانية حقيقية لتحقيق تحليل معمق.

ويخلص كارلي إلى القول إنه لا توجد أية ضرورة بيولوجية تكون مسؤولة عن الانحدار الإنساني والكراهية والعدوانية التي يعرف الإنسان جيداً كيف يمكن غرسها وتربيتها قبل أن يحصد في وقت ما نتائجها المريرة. ففي مستوى التطور الذي بلغه الجنس البشري، لا يوجد عدوان محدد مسبقاً بطريقة لا يمكن تجنبها، إلا في ضوء رفض الإنسان تحمل مسؤولياته الفردية والجماعية[٤٠].

إن البحث في العوامل التي تسهم في احتمال ظهور العدوان، وكيف يمكن تعديل هذا السلوك عن طريق التأثير في هذه العوامل. إذ يجب إعادة الاعتبار إلى الإنسان وحريته ومسؤوليته. فلا يمكن للإنسانية أن تأخذ مصيرها بنفسها إلا عبر مشروع واع لأناس واعين يتابعون أهدافهم بحرية. وفي اختيارها هذه الأهداف ووسائل تحقيقها يجب أن تعمل على أن تصبح شعوباً تهدف في مشروعاتها وفي أفعالها إلى تحقيق العدل، وتهدف إلى تحقيق مجتمع إنساني حقيقي، يشعر كل فرد من أفراده أنه يحظى بالقبول والاحترام والأهمية.

كيف يمكن أن نقبل أن العدوان هو محصلة للانتخاب الطبيعي، في حين لا نقبل أن يكون الأمر كذلك بالنسبة للصداقة والمحبة والتضحية. في الحقيقة يجب عدم الخلط بين السلوك بوصفه وسيلة للتعبير وللفعل يمتلكه الفرد وبين الغريزة

المزعومة. والمثل على ذلك هذه الوسيلة الرائعة التي هي يد الإنسان. فمن المرجح أن يكون تطور العتاد الوراثي تحت تأثير مجموعة من العوامل المرتبطة في التفاعل مع البيئة قد مكن من تطور حركات اليد المتنوعة وأكثرها مهارة وأهمية. ولكنه من غير المرجح على الإطلاق أن تكون العوامل الوراثية محرضة لهذه اليد أن تقتل أو تجرح أو تهدم أو على العكس أن تحنو أو تداوي الجراح أو تبدع وتبارك.

خاتمة

أغنت البحوث الإيثولوجية علم النفس، خصوصاً تلك البحوث المتعلقة بالطفولة المبكرة، وبمهارات الصغير في التكيف مع ظروف حياته اليومية، لقد أثّرت هذه البحوث في تعميق فهمنا للطفولة وفي تغيير نظرتنا إلى الطفل تغييراً جوهرياً. ركزت الإيثولوجيا دراسة السلوك دراسة موضوعية مما يشير إلى عناصر مشتركة مع السلوكية الأمريكية التقليدية. على الرغم من ذلك تختلف الإيثولوجيا عن السلوكية التقليدية اختلافاً جوهرياً. ففي حين ترفض السلوكية أي تفسير للسلوك استناداً إلى البيولوجيا (الوراثة)، جعلت منها الإيثولوجيا القاعدة التي يستند إليها السلوك، مما فتح المجال لهذا التزاوج غير المتوقع بين السلوكية والبيولوجيا (Zazzo, 1985).

حاول الإيثولوجيون فهم دور الوسائل السلوكية في البقاء وفي المحافظة على النوع، خاصة ما يسمى بالسلوك الفطري، فبنية النظام السلوكي الفطري تسمح بالتوصل إلى نتيجة مفيدة للفرد. إلا أن هذه الفائدة ليست سوى فائدة مباشرة، فالفائدة النهائية تكون فائدة النوع. وتكون النتيجة النهائية للأنظمة السلوكية الفطرية – كمضغ الطعام (سلوك التغذية)، أو الاتحاد الجنسي أو الحماية الذاتية، أو الدفاع عن الأرض أو المحافظة على النوع.

لقد ألح معظم الإيثولوجيين، في الربع الأخير من القرن الماضي، على أهمية التعلم في النمو وأهمية الخبرات المبكرة في تطور الأنظمة السلوكية عند الفرد. وهذا يدحض الانتقاد الذي وجه إلى الإيثولوجيا بأنها تجاهلت بوضوح أننا – وإلى حد كبير – محصلة لتجاربنا وخبراتنا. بل على العكس، يعود لها الفضل في تذكير علماء النفس بأننا مخلوقات بيولوجية، ونمتلك خصائص وراثية تؤثر في خبراتنا وتجاربنا المتعلمة. لقد ألح الإيثولوجيون على أهمية رؤية النمو الإنساني في سياق تطوري (كرين، ١٩٩٢). فكل طفل يمتلك عتاداً وراثياً تطورياً، يؤثر في سلوكه وفي استجابات

الآخرين نحوه. وربما كانت الفكرة الإيثولوجية الخلاقة هي التي ترى أن الطفل الحديث الولادة هو مخلوق اجتماعي (Shaffer, 1985)، يتمكن من تطوير التواصل الاجتماعي وتثبيته منذ اليوم الأول لولادته*.

يوضح هذا البحث أنه يصعب إيجاد تفسير وحيد البعد للكثير من جوانب السلوك البشري، فالظاهرة السلوكية على درجة كبيرة من التعقيد، يستدعي فهمها التعاون والتفاعل بين ميادين علمية متعددة، تهدف إلى الوصول إلى نظرية مفتوحة متعددة الأبعاد، تمكننا من فهم أفضل للسلوك الإنساني.

(*) Shaffer D. R., Developmental Psychology: theory, Research, and Application, Brooks/Cole Publishing Company: Monterey. California. 1985, p. 65.

الهوامش

١ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص١١.

٢ – Zazzo R, *L'Attachment,* Neuchatel: Delachaux et Niestle. 1979, p. 24.

٣ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص٣٢.

٤ – المرجع السابق، ص١٥.

٥ – المرجع السابق، ص٢٨.

٦ – المرجع السابق، ص٢٩.

٧ – Atakinson R. L., Atkinson R. C., Smith E. E., Bem D. J. and Nelen - Hoeksema S., *Hilgard's Introduction to Psychology,* Harcourt Brace: New York, Montreal, London, p. 27.

٨ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص٦.

٩ – المرجع السابق، ص٧.

١٠ – المرجع السابق، ص١٤٦.

١١ – المرجع السابق، ص١٤٧.

١٢ – المرجع السابق، ص١٤٨.

١٣ – المرجع السابق، ص١٣٨.

١٤ – المرجع السابق، ص١٥١.

١٥ – Nadel, J. *Imitation et communication entre jeunes enfants*. Paris: P.U.F. 1986, p. 30.

١٦ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص١٥٥.

١٧ – المرجع السابق، ص١٥٨.

١٨ – المرجع السابق، ص١٥٧.

١٩ – قنطار فايز، **الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، ص٢٤.

٢٠ – المرجع السابق، ص٢٨.

٢١ – المرجع السابق، ص٣٠.

٢٢ – المرجع السابق، ص٢٨.

٢٣ – المرجع السابق، ص٣٨.

٢٤ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص٤٤.

٢٥ – كرين وليام، ١٩٩٢، ترجمة محمد الأنصاري ورجاء أبو علام: **نظريات النمو**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩٦، ص٥٨.

٢٦ – قنطار فايز، **الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، ص٧٧.

٢٧ – المرجع السابق، ص١٣٨.

٢٨ – Schaffer H. R., *Mothering, London: Open Book| Fontana, Harvar University press, 1977, p. 58.*

٢٩ – قنطار فايز، **الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢، ص١٧٠.

٣٠ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص٧٣.

٣١ – Cowie, H., Child care and attachment, In Barnes P. (Ed.), *Personal*

Social and Emotional Development of Children, Blackwell: Oxford UKL and Cambridge US., 2001, p. 3.

٣٢ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة،** الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص١٨٩.

٣٣ – Kontar F, Study of communication behaviour in children: Affiliative and Agonistic Exchanges in Toddler - Peer Interaction. *The E.R.C. Journal, 1,* 1992, p. 251-267.

٣٤ – قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة،** الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١، ص٢١٢.

٣٥ – Karli P., *L'homme Agressif,* Editions Jacob, France, 1987, p. 29.

٣٦ – المرجع السابق، ص٣١.

٣٧ – ميغارجي وهوكانسون، **سيكولوجية العدوان،** ترجمة ناصيف عبدالكريم، دار دمشق: سوريا، ١٩٨٦، ص٢٠.

٣٨ – Karli P., *L'homme Agressif,* Editions Jacob, France. 1987, p. 33.

٣٩ – المرجع السابق، ص٣٧.

٤٠ – المرجع السابق، ص٣٦٧.

المراجع

١ – المراجع العربية:

- قنطار فايز، نمو العلاقات القوية (ص١٣٤–١٧٨)، في: **علم نفس النمو (الطفولة)** – الجامعة العربية المفتوحة، ٢٠٠٣.
- قنطار فايز، دراسة أولية لسلوك الإرضاع في المجتمع السوري، **مجلة الطفولة العربية**، (٦)، ٢٨–٤٨. الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ٢٠٠١.
- قنطار فايز، دور كل من الأسرة والروضة في نمو الطفل من الناحية العقلية والانفعالية والاجتماعية واللغوية، **أعمال المؤتمر الدولي الأول لطفل الروضة بدولة الكويت**، كلية التربية الأساسية، الكويت، ٩٧–١١٧، ١٩٩٨.
- قنطار فايز، **الأمومة: نمو العلاقة بين الطفل والأم**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢.
- قنطار فايز، **تطور سلوك الاتصال عند الطفل في المرحلة ما قبل المدرسة**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩١.
- كرين وليام، ترجمة محمد الأنصاري ورجاء أبو علام (١٩٩٦) **نظريات النمو**، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، ١٩٩٢.
- ميغارجي وهوكانسون، **سيكولوجية العدوان**، ترجمة ناصيف عبدالكريم، دار دمشق: سوريا، ١٩٨٦.

٢ – المراجع الأجنبية:

- Ainsworth, M., 1967, *Infancy in Uganda. Baltimore:* John Hopkins University Press.
- Ainsworth, M., 1972, Attachment and dependency: a comparison. In *attachment and dependency,* ed. Gewirtz, New York: Wiley.
- Atakinson R.L., Atkinson R.C., Smith E.E., Bem D.J. and Nelen-

Hoeksema S., 1996. *Hilgard's Introduction to Psychology,* Harcourt Brace: New York, Montreal, London.

- Bateson P. and Hinde R., 1987, Developmental changes in sensitivity to experience, In Bornstein M. (Ed.), *sensitive period in development:* Interdisciplinary Perspectives. London: L.E.A.
- Baudonniere P.M., 1988, *L'evolution des competences a communiquer chez l'enfant de 2 a 4 ans,* Paris: PUF.
- Blass E.M., 1987, Critical events during sensitive periods of social development in Past. In Bornstein M. (Ed.), *sensitive period in development: Interdisciplinary Perspectives*. London: L.E.A.
- Blurton-John N.G., 1967, An ethological study of some aspects of social behaviour of children in nursery school, In Morris D.K. (Ed.), *Primat ethology*. London: Weindenfield and Nicolson.
- Blurton-John N.G. (Ed.), 1972, *Ethological studies of child behaviour,* London: CUP.
- Bowlby, 1969, *L'attachment,* 1, Paris P.U.F.
- Bowlby, 1973, *La separation,* 2, Paris P.U.F.
- Bussey K. & Bandura A., 1999, Social-Cognitive theory of gender development and differenciation, *Psychological Review*.
- Cabanac M., 1971, Physiological role of pleasure, *Science*.
- Campan R. et Le Camus J., 1986, Sur le pas de l'ethopsychologie, *In Ethology and Psychology,* Le Camus and Cenier (Eds), Toulouse: Privat.
- Carlsson, S.G., Fagerberg H., Horenman G., Hwang C.P., Larsson K., Rodholm MG. And Schaller, J., 1978, Effects of amount of contact between mother and child on the mother behavior. *Developmental Psychobiology, 11.*
- Carlsson, S.G., Fagerberg H., Horenman G., Hwang C.P., Larsson K., Rodholm MG. And Schaller, J., 1979, Effects of various amounts of contact between mother and child on the nursing behavior. *Infant Behavior and Development 2.*
- Collis, G.M. 1979, Describing the structure of social interaction. In Bullowa M (ed.) *Before Speech*. London: Camrbidge University Press.
- Cowie, H., 2001, Child care and attachment, In Barnes P. (Ed.), *Personal, Social and Emotional Development of Children,* Blackwell: Oxford UK and Cambridge US.

- De Wollff MS. and Van Ijzendoorn M.H., 1997, Sensitivity and Attachment: A meta-analysis on parental antecedents of infant attachment. *Child Development, 68,* 4.
- Doyle A and Rivest L.P., 1980, The effects of playmate familiarity on the social interactions of young children. *Child Development, 51.*
- Easterbrooks, M.A. and Lamb M.E., 1979, The relationship between quality of infant mother attachment and infant competence in initial encounters with peers. *Child Development, 50.*
- Eibl-Eibesfeldt I,. 1973, The expressive behaviour of the deaf and blind born. In Von Granach M. and Vine T. (Eds), *non-verbal behaviour and expressive mouvement.* London: academic Press.
- Eibl-Eibesfeldt I., 1977, *Ethologie: Biologie du Comportement.* NEB Ed. Scientifique: Paris.
- Eibl-Eibesfeldt I., 1979, *The biology of peace and war; men animals' and aggression,* Thames and Hudson: Greet Britain.
- Eibl-Eibesfeldt I., 1983, Patterns of parent-child interaction in a cross-cultural perspective. In Oliverio A and Zappella M. (Eds.): *The Behavior of Human Infants,* P.P.C.
- Fonzi A., Schneider B H, Tani F and Tomada G., 1997, Predicting Children's Friendship Status From Their Dyadic Interaction in Structured Situations of Potential Conflict, *Child Development, 68.*
- Geary, D.C. & Bjorklund, D.F., 2000, Evolutionary developmental psychology. *Child Development, 71.*
- Halpin T.Z., 1986, Individual odours among mammals: origins and functions: In Rosenblatt, J.S., Hinde, R.A., Beet, C. and Busnel, M.C.: *Adv. Stud. Behav.,* Vol. 16, Academic Press, New York.
- Harlow H.F. and Harlow M.K., 1965, The affectional systems, In Schrier Harlow H.F. and Stollnitz F. (Eds.): *Behavior of non-human primates,* New York and London: Academic Press.
- Hartup W.W., 1976, Peer interaction and the behavioral development of the individual child. In Schopler E. and Reichler R. (Eds), *Psychopathology and child development research and treatment.* New York: Plenum Press.
- Hartup W.W., 1983, Peer relations, In Mussen P.H. (Ed.): *Handbook of Child Psychology:* New York: Wiley.

- Hirch H V B and Tieman S B, 1987, Perceptual development and experience dependent changing in Car visual cortex, In Bornstein M.H. (Ed.), *Sensitive periods in development: Interdisciplinary perspectives,* London: IEA.
- Howes C., 1980, Peer play scale as an index of complexity of peer interaction, *Developmental Psychology, 4*.
- Jackson J.F., 1993, Human Behavior Genetics, Scarr's Theory, and Her Views on Interventions: A Critical Review and Commentary on their implications for African American Children, *Child Development, 64*.
- Karli P., 1987, *L'homme Agressif,* Editions Jacob, France.
- Klaus M.H., Kendall J.H., Uehlke S., 1979, Human maternal behavior at the first contact with her young *Pediatrics, 46*.
- Klaus M.H., and Kennel J.H., 1976, *Matternal-Inffant bonding*. St. Louis: Mosby.
- Kontar F., 1987, *Etude concomitante, de deux systems de communication du jeune enfant: le systeme mer-enfant et le system enfant-enfant*. Doctorat es Sciences Naturelles, Universite de Besancon, France.
- Kontar F., 1992, Study of communication behaviour in children: affiliative and agonistic exchanges in Toddler - Peer Interaction. *The E.R.C. Journal, 1*.
- Kontar F. et Soussignan R., 1987, Les systemes d'interaction du jeune enfant avec ses pairs: les exchanges dyadiques et polyadiques. *Biology of Behaviour,12*.
- Le Camus J., 1985, *Les relations et les interactions du jeune enfant; Etude ethopsychologique de son developpement,* Lea editions ESF: Paris.
- Lewis M., Young G., Brouks, J, and Michalson, L., 1975, *Friendship and peer relations,* New York: Wiley.
- Lewis M. and Rosenbllum I., 1979, *The child and its family,* New York and London: Plenum Presse.
- Lorenz K., 1935, Der Kumpan in der umwelt des Vogels, *Journal of Ornithologe, 83*.
- Lorenz K., 1973, *L'Agression,* Une histoire naturelle du mal, Flammarion, Paris.
- Maccoby Eleanor E., 2000, Perspectives in gender development, *International Journal of Behavioral Development, 24(4)*.

- Mac Farlane A.J., 1975, Oflaction in the development of social preferences in the neonate. *Cieba Found. Symp., 33*.
- Mc-Grew W.C., 1970, Glossary of motor patterns of four-years old nursery school children. In Hutt S.H. and Hutt C. (Eds). *Direct observation and Measurement of Behaviour*. Springfield: Thomas.
- Mc-Grew W.C., 1972, *A ethological study of children behavior*. New York: Academic Press.
- Montagner H., 1978, *L'enfant et la communication,* Paris: Stock.
- Mueller E., 1979, Toddlers and Toys = an autonomous social systems, In Lewis M. and Rosenblum (Eds). *The social network of the developing infant,* New York: Plenum.
- Mueller E. and Brenner J., 1977. The origins of social skills and interaction among playgroup toddlers. In Lewis M. and Roseenblum L.A. (Eds): *Friendship and peer relation*. New York: Wiley.
- Nadel J., 1986, *Imitation et communication entre jeunes enfants*. Paris: P.U.F.
- Provost M., 1985, Perspective historique de l'ethologie, In Tremblay R.E., Provost M.A. et Strayer F.F. (Eds): *Ethologie et Developpement de l'enfant*. Paris: Stock.
- Robert, P., 1977, *Dictionnaire alphabetique et analogique de la langue francaise,* Paris: Societe du nouveau Littre.
- Ross H.S. and Goldman B., 1977, Establishing new social relations in infancy in Alloway T., Pilner and Krames L., (Eds): *Advances in communication and affect: Attachment behavior*. New York: Planum.
- School B., 1984, Ontogenese des communications olfactives entre l'enfant et la mere, *Reprod. Nutr. Develop., 20*.
- Schaal B. 1988, Review: Oflaction in infants and children: developmental and functional perspectives, Chemical Senses, Vol. 13, n 2.
- Schaal B. and Kontar F., 1985, The development of the mother's ability to identify her infant's odour: effects of individual and experiential variables. *3rd World Congress of Infant Psychiatry and Allied Disciplines,* Sweden: Stockholm.
- Schaal B., Rouby C., Marlier L., Soussignan R., Kontar F., et Tremblay R., 1997, Variabilites et universaux au sein de l'espace percu des odeurs: Approches inter-culturelles de l'hedonisme olfac

In: Dulau R. et Pitte J-R.: *Geographie des Odeurs:*. L'Harmattan: Paris, Montreal.
- Schaal B. and Kontar F. 1998, Mediations Olfactives de la Socialisation Precoce. In: Rey-Hulman D. et Boccara M., (Eds) *Oduers du Monde eeriture de la nuit*. L'Harmattan: Paris, Montreal.
- Schaffer H.R., 1977, *Mothering*. London: Open Book/Fontana, Harvard University Press.
- Schaffer H. R., 1984, *The Child's entry into a social world*, London: Academic Press.
- Shaffer D.R., 1985, *Developmental Psychology: theory, Research, and Applications,* Brooks/Cole Publishing Company: Monterey, California.
- Stern D., 1977, *The First Relationship: Infant and Mother,* London: Fontana/Open Books.
- Strayer, F.F. and Strayer J.K. 1976, An ethological analysis of social agonism and Dominance Relations Among Preschool Children. *Child Development, 47,* 980-988.
- Strayer F.F., 1978, L'organisation Social Chez les Enfants d'age Prescolaire. *Sociologie et Societe, 10, 1.*
- Strayer F.F. et Trudel M., 1985, L'Ethologie Sociale de L'enfant: choi des comportements, modes des relevees et demarches analytiques. *Comportements, 3,* Paris: CNRS.
- Strayer F.F., Leclerc D. and Blicharski T., 1987, Age and gender differences in agonistic activity during the preschool years. In Strayer F.F. and Moss E. (Eds): *The development of social and representational tactics during early childhood, Montreal:* La maison d'ethologie de Montreal.
- Thompson R.A., 1997, Sensitivity and Security: New questions to ponder. *Child Development, 68*.
- Thompson R.A. & Lamb M., 1984, Infant, mother, families and strangers, In Lewis M. (ed): *Beyond the dyad,* New York and London: Planum Press.
- Tinbergen, N., 1951, *The study of instinct,* London: Oxford University Press.
- Tremblay R.E., Provost M.A. et Strayer F.F., 1985, *Ethologie et Developpement de l'enfant,* Stock/Laurence Pernoud: Paris.
- Trevarthen C., 1977, Descriptive analysis of infant communicative

Behaviour, In Schaffer H.R. (Ed.), *Studies in Mother-Infant Interaction,* London New York: Academic Press.
- Trevarthen, C., 1979, Communication and Cooperation in Early infancy: a description of primary intersubjectivity. In Bullowa M. (Ed.): *Before Speech,* Cambridge: Cambridge University Press.
- Trevarthen C., 1989, The foundation of intersubjectivity: Development of Interpersonal and cooperative uderstanding in infant. In Olson D.R. (Ed.) *The foundation of language and thought*. New York: Norton.
- Tronick E. Als H., and Adamson L., 1979, Structure of early face-to-face communicative interactions. In Bullowa M. (Ed.) *Before Speech*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Vandell D.L., 1979, Effects of a playgroup experience on mother son and father son interaction. *Developmental psychology, 4*.
- Van den Boom D.C., 1997, Sensitivity and Attachment: Next steps for developmentalists. *Child Development, 68*.
- Von Cranach, M., Foppa, K., Lepenies W., and Ploog D., (Eds) 1979, *Human Ethology; Claims and limits of a new discipline,* Cambredge University Press & Editions de la maison des sciences de l'homme: London, Paris.
- Zazzo R., 1979, *L'Attachement,* Neuchatel: Delachaux et Niestle.
- Zazzo R., 1985, Ethologie et Psychologie, preface, In Tremblay R.E., Provost M.A. et Strayer F.F. (Eds): *Ethologie et Developpement de l'enfant,* Paris: Stock.
- Whiten A., 1977, Assessing the effects of perinatal events on the mother-infant relationship, In Schaffer H.R., (Ed.): *Studies in mother-infant interaction*. London: Academic Press.
- Wilson E.O., 1975, *Sociobiology, the new synthesis,* Cambridge: Mass the Belkmap Press.

New Horizon in Human Sciences: Ethology and Psychology

Abstract

The field of ethology can be defined as the biology of behaviour. The behaviour of animals and its physiological basis has evolved phylogenetically and should be studied as one aspect of evolution. Some researchers attempt to apply ethological methods and the evolutionary perspective to psychological and sociological phenomena of human behaviour.

The Ethological approach has a common interest with psychology in analyzing human behaviour, understanding social interaction and clarifying the function of a particular kind of behaviour; e.g. attachment behaviour and its adaptive value. It is important to emphasis that ethology has contributed in two particular ways to the ontogeny of behaviour. First, from the application of techniques for the precise observation, description and classification of naturally occurring behaviour and second, from the study of the develpment of behaviour in term of evolution.

Is human individual's behaviour largely determined by history and his own cultural environment? Is nature or nruture pre-eminent? The ethological approach showed fruitful to find responses to this questions and for studying some aspects of human behaviour; e.g. attachment behaviour, child peer interaction, verbal and no verbal behaviour, sex differences, aggressive behaviour,... etc.

One interesting ethological idea is that infants are sociable creatures who are capable of promoting social encounter from the day they are born.